سُكَّان الجِيل الأخِير

محمود عبد العزيز

اسم المؤلف: محمود عبد العزيز
اسم الكتاب: سُكَّان الجِيل الأخِير
مدير النشر: مروة فتحى
تدقيق لغوي: رنيم محمد ربيع
الإخراج الداخلي: ماهيتاب يحيى
طبعة ديـير الأولى 2025
رقم الايداع:
الترقيم الدولي:

ديـير للنشر والتوزيع©

2 عمارات الوادي المنطقة 11 الحي الثامن مدينة نصر القاهرة
تليفون: 002024725789

E-mail:deer.publishing@gmail.com
Facebook @ deer.publishing
Instagram @ deer_for_publishing
Twitter @ deerpublishing
WhatsApp: 00201010106268

#في_القراءة_حياة
#القراءة_حب

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
القاهرة- جمهورية مصرالعربية

جميع الحقوق محفوظة لديير للنشر والتوزيع ©، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير مباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته، أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية، أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا، أو استرجاعه، أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق صريح من الناشر.

سُكَّان الجِيل الأخِير

محمود عبد العزيز

لا مفر من المعركة الفاصلة، فقد حُسم الأمر.

«أهلًا بك في سكان الجيل الأخير»

إهداء

لـم أكـن أتخيَّـل يومًـا أن أكتـب إهـداءً إلى أبي مـن دون أن يقـرأه، مـن دون أن ألمـح ابتسـامته العذبـة الفريـدة تتجلَّـى علـى وجهـه الرائـق، مـن دون حتى أن أسـمعه يقـول لي في انبهـارٍ ملأ باحـة عينيـه: «الله، دي جميلـة خالـص».

وها أنا اليوم أفعل يا أبي، فكم هذه الدنيا عجيبة.

رحمك الله يا صديق عمري.

على هامش الحكاية

في يومٍ ما كنتُ جالسًا مع صديقي محمود عبد العزيز في مكاننا المعتاد والمفضَّل، القهوة، (ودعوني أقول لكم لمحةً سريعةً عن القهوة، هي إما أن تكون مكانًا لوَأْد أحلامكَ وتُضيِّع عمرَك سُدًى، وإمَّا أن تكون متنفَّسًا للفضفضة ورسم خطط المستقبل.. والخيار لك).

وبينما نحن جلوس، نَسرِد أفكارنا ونتطلَّع بخيالاتنا للمستقبل، إذ فجأةً قفز في ذهني سؤال عابر طرحتُه عليه: «ماذا لو انقرض الرجال»؟!

كان ردُّه غير المتوقَّع منه، أنه قال والذهول يكاد يقتله: «فكرة تُفرَد لها الصفحات»، أدهشتني إجابته حقًّا؛ كوني توقَّعت منه المناكفة والاعتراض كمعتاد حديثنا وجلستنا، والتي نادرًا ما نتفق فيها على شيء.

لم يُمهلني وقتًا حتى أَخرَج من حقيبته دفترًا صغيرًا وقلمًا، وكتب في صدر الصفحة الأولى عنوانًا عريضًا: «ماذا لو انقرض الرجال؟!»، ثم وضع القلم بجوار الدفتر على الطاولة، ورُحنا نتبارَى في حكي التفاصيل واستعراض الأحداث، وتحوَّل نِقاشُنا

إلى ما يُشبه حلبةَ مصارعةٍ حرةٍ تُبيح كل أنواع الضرب، فيبارزني بمشهد وأبارزه بمشهدٍ آخر أشدَّ، يلكُمني بمشهد ثالث أروع فأركله بمشهد رابع يُربكه، وظلَّ الاشتباك بالمَشاهد بيننا محتدِمًا لساعاتٍ حتى انتهينا من رسم تفاصيلها وتزيين مشاهدها، بالضبط كما يُزيِّن الرسام لوحتَه الفنيَّة البديعة.

والحق أقول، كان الظن الغالب على اعتقادي أن ما قُمنا به هو مجرَّد مزحة، ولكنه استطاع تحويل الفضفضة إلى رواية محكمة في بضعة شهورٍ قليلةٍ، حين هاتفني وهو يقول لي في مفاجأة أسعدتني: «أنجزتُ الروايةَ»، فلم أُصدِّقه حتى رأيت ذلك بأمِّ عيني، واطَّلعت عليها وسط حالة من الذهول!

والآن، بين أيديكم عملٌ أدبيٌّ جديرٌ بأن تستقطعوا جزءًا -ولو قليلًا- من أوقاتكم لتستمتعوا به، وستدركون بعد قراءتها أنني لم أُجامله قَطُّ.

أحمد جودة

(1)

استيقظت الدكتورة جوانة النجار فزعة من سباتها العميق على مناحة أولادها الثلاثة يتشاجرون كالمعتاد كل يوم، وقفوا أمامها على حافة السرير يستغيثونها لتحكم بينهم بالعدل، البنتان في مواجهة الولد الوحيد، وكلا الطرفين يحمل حجّته القوية، لبثت جوانة محدِّقة فيهم النظر لدقائق معدودات لا تنطق ولا تطرف كمن زارها الموت، ثم صرخت فيهم بقوة فسكتوا خوفًا وإذعانًا، وقضت بميزان قلبها المائل، فنصرت الولد على البنتين، فعادتَا إلى غرفتيهما غاضبتين مُنكَّستا الرأس يثرثرن ويضجرن، بينما الولد جلس واضعًا ساقًا على ساقٍ في وسط الردهة يستمتع بالسيطرة على مقاليد الألعاب وحده!

وفُضَّ هذا الاشتباك بصرف النظر عن أين تكمُن العدالة، المهم عندها ألَّا تُغضب الولد.

كان وجه جوانة مكتنفًا بالغموض هذا الصباح، فلم يكن أولادها سببُه، ولا حتى خيبة طلاقها التي لا تزال تخيِّمُ بظلالها على حياتها، ولا أيضًا الحلم المزعج الذي يراودها في منامها بين حين وآخر، فقد ألِفَت كل هذا، وإنما كان سبب الضجر هو كابوس اليقظة؛ أخوها مؤمن بمشاكله التي لا تنتهي، خاصَّة بعد الشجار

اللفظي الذي وقع بينهما ليلة أمس عقب رفض والديهما زواجه من الفتاة الصينية التي اقتحمت حياته فجأةً.

وكما هو الواقع بينهما وما أَلِفت عليه العادة بعد كل شجار، يقدم لها قرابين الاعتذار بأسلوبه المرح، فتسامحه كدأبها وتنسى الألم في زحمة الاعتذار. ثم تحاول أن تشرح له ملابسات الرفض من وجهة نظر والديهما، فيقاطعها بلهجة حاسمة لا تقبل التفاوض:

- سأتزوّجها رغمًا عنكم، أنا أحبها، أحبها، هل تفهمين؟!

لم يُمهلها فرصةً للرد، وواصل هياجه المندفع بغتة:

- ولو لزم الأمر سأهرب معها.

ثم أغلق الهاتف من دون انتظار جوابها.

جلست جوانة كئيبةً حزينةً تُمعن النظر في إيجاد حلٍّ لمأزق أخيها الأخير، خاصَّة وهي تعلم رفض والديها هذه الزيجة رفضًا تامًّا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه الصينية أخت الدكتور يونج رئيس القسم الذي تعمل فيه.

رن هاتفها مرةً أخرى، لكنه لم يكن أخاها، بل كانت خديجة صديقتها وزميلتها في مركز الأبحاث، تُخبرها بأن هناك اجتماعًا طارئًا آخر اليوم، ولا بد من إنجاز بعض المهام المتأخِّرة. في دقائق ارتدت بزَّتها الجميلة وحملت حقيبتها وأوراقها، وألْقَت على أولادها محاضرةَ كلِّ يوم، ثم ولَّت مسرعةً إلى عملها الذي يُنسيها هموم الدنيا وبلاياها.

دخلت المركز كأنَّما يراها الزملاء لأول مرة، فبدا لهم أن ثمَّة أمرًا ما كدَّر صفاءها الباهي، لكن أحدًا لم يكن لديه الجرأة ليحادثها فيما لا يَعنِيه، إلَّا خديجة، التي حاولت استخراج ما يؤلمها من صدرها فلم تُفلح. لم يمرَّ وقت طويل على جُوانة حتى داوت جروحَ نفسها بنفسها، وانخرطت في عملها المألوف الدؤوب تصول وتجول، تبحث وتُدقق، تأمر وتنهى، كما جرت العادة من كونها نائبةَ رئيسِ القسم.

دقت الساعة الثالثة عصرًا، اجتمع رئيس القسم تاويونج بالباحثين والباحثات الذين انتقاهم بعنايةٍ شديدةٍ سلفًا، ليقدِّم كلٌّ منهم مُنجزات بحثه على طاولة الاجتماع، وشرعوا يُقلِّبون الآراء والاقتراحات وسط إنصاتٍ تام منه، كان شاردًا بعض الشيء، وإن بدا ذلك عارضًا إلَّا أنه شديد الذكاء، إذ أحس بعضهم بشيءٍ ما غريب من طريقة استماعه المبهم، فسكت الجميع واحدًا تلو واحد، حتى قال كما لو في نفسه ريبة يريد دفعَها، موجِّهًا حديثه للسيدات فقط:

– ماذا ستفعلن لو انقرض الرجال؟!

وَجَم البعض، وأفلتت ضحكات من البعض الآخر.

لم يهتمَّ بضحكهم، واستطرد قائلًا:

– كلُّ فكرة غيّرت البشرية كانت محلَّ افتراضٍ في بدايتها، فلا تهزؤوا بأي افتراضٍ ولو رأيتموه ساذجًا من وجهة نظركم.

ثم وقف وعلى وجهه ملامح حزم:

– يمكنكم الانصراف الآن، انتهى الاجتماع.

كأنه أراد نزع فتيلَ فكرةٍ تشغل باله، حتى ولو كانت افتراضية، فقط ليرى بعينيه آثارها على وجوههم الحائرة، لعلَّه يجني ثمارَها لاحقًا!

لم تمر الفكرة مرور الكرام على الباحثة جوانة، فهي خبيرة بالدكتور يونج، وتعرفه جيدًا، فقلَّما يُدلي بنِكاتٍ من أجل النكات نفسها! أمَّا زملاؤها فارتأوا أنها مبالِغة في تخوُّفاتها، وأن الدكتور يونج لم يقُل هذا إلَّا مُداعبةً وتسليةً لكسر حالة الملل، واستدلَّ بعضهم بأنه قد سأل ذات السؤال لمتابعيه على صفحته الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك ليلة أمس، وأثار هذا المنشورُ تفاعلًا واسعًا بين الزملاء، وحظِيَ بنِكات وسخريات خاصَّة من جانب بعض اللواتي رأينه تنفيسًا عن دواخلهن المكبوتة ضد رجالهن، لكن جوانة ما كانت قَطُّ لتدع شيئًا يمرُّ سُدًى دون أن تدرس خفاياه، وما الذي وراءه؟ فاعتبرت أن هذا المنشور تحديدًا يُرسِّخ لتخوُّفاتها من أن هناك فخًّا ما منصوبًا بعناية. فهذا ما تعلّمته من مخالطة الأجانب، ولذا لم يساورها شكٌّ حِيال يقينها!

انتهى النقاش بين الزملاء إلى اللاجدوى، بعد أن استعرض كلٌّ منهم حُججَه وشروحه في الدفاع والهجوم، ثم كالعادة غادر الرجال القاعة وجلست النسوة مع بعضهن، فحاولت إحداهن التفريج عنهن، وأعادت طرح السؤال مرة أخرى: «ماذا لو انقرض الرجال»؟!

– سيكون يوم الخلاص الكبير، وسأقيم فرحًا كبيرًا لمدة ثلاثة أيام.

هكذا أجابت إحداهن ضاحكةً متمنِّية. فردَّت أخرى:

- (يا لهوي) على الإحساس وجماله، مجرد التخيُّل فقط جعلني أبتسم وأحلِّق في الفضاء. فلو تحقق هذا الحلم ستقلُّ الزحمة، وتنتهي الفوضى والضوضاء والبلطجة، وتُغلَق السجون ومستشفيات الأمراض العقلية، ولن يوجد معنى للخيانة والقهر والمعاناة والكذب والرياء. فما فَسَد العالم إلَّا بحُمق الذكور.

ضحكن كثيرًا لهذا السرد المتواصل غير المتوقع منها، والذي بدا منه أنها تعاني المرار مع زوجها.

وسرعان ما اندمجت جوانة وأدلَتْ برأيها في هذا الصراع الافتراضي الضاحك قائلة:

- سنحيا في سلام، ونتقلَّد جميع المناصب التي انتُزعت منَّا بحُجة أننا لا نصلح إلَّا للبيت، وسنحكم العالم بالطريقة التي تُرضي رغباتنا وطموحاتنا. وبالمرة نرتاح من تطبيل أحمد موسى وشطحات إبراهيم عيسى.

لوحظ أن خديجة لم تُدلِ برأيها بعدُ -وهي المنتقبة الوحيدة في المركز- فسألتها جوانة عن رأيها في هذا الافتراض، فقالت -بعدما تنهَّدت طويلًا كأنما تسترجع أيامها الخوالي وخيالاتها الدفينة-:

- سأخلع النقاب، وأرقص في الشارع كل ليلة حتى مطلع الفجر.

ثم سكتت لبرهة، وقالت بتنهيدة طويلة:

- وألبس المايوه، وأنزل البحر.

لم يتمالكن أنفسهن من الضحك، وعلت أصواتهن تدوي في غرفة الاجتماعات. وتابعت أخرى سلسلة الأمنيات المحبوسة في النفس قائلة:

– ونكسر (زير) وأربعين قُلَّة، ونغلق الكوكب على أنفسنا كي لا يتسلل منهم ناجٍ ويعود مرة أخرى، ونعيش في سلام تام من دون حروبٍ أو نزاعاتٍ أو أطماعٍ سياسية واقتصادية، ويصبح العالم كله في حُبور وراحة دائمة لا تنقطع.

كل منهن عبَّرت عما يدور في خلدها من أفكار وأمنيات مضمرة في قاع النفس. فلا عجب إذن حينما تظهر كوامن النفس البشرية الحقيقية في موقفٍ عابر، حتى ولو كان افتراضيًّا!

قبل عام من الآن، عادت الدكتورة والباحثة المخضرمة في علم الفيروسات جوانة النجار من أمريكا بعد منحة علمية من الوزارة أجادت خلالها وأبهرت الكثير من العلماء بأبحاثها في المجال، والتي استغرقت مدة مِنحتها عامين وبضعة أشهر، وكانت هذه المنحة سببًا رئيسيًّا في طلاقها من زوجها الذي خيَّرها في لحظةٍ فارقةٍ في حياتها ما بين العمل أو البيت؟ فاختارت العمل، ومذ ذلك الحين كرَّست مجهودها ووقتها ما بين البحث العلمي وأولادها، وأغلقت باب الزواج في وجوه المتقدّمين اللحوحين، رغم أنها لا تزال في أوج جمالها، ورغم أن لديها ابنتين الأولى في الخامسة عشرة، والثانية في التاسعة، وولدًا وحيدًا مدلّلًا في السابعة من عمره.

ومنذ عودتها لم يقلَّ شغفُها العلمي إلَّا بطامَّة أخيها التي قلبت حياة عائلتها رأسًا على عقب، حين وقع في حب أخت رئيسها الصيني الدكتور يونج، عندما رآها في حفل العشاء العائلي

الـذي أقامـه المركـز احتفـالًا بعودتهـا مـن أمـريكا، حاولـت جاهـدةً بقـدر الإمكان أن تُثنيـه عـن الـمُضيِّ في هـذه الزيجـة نظـرًا لاخـتلاف الثقافـات والديـن والواقـع، لكنـه رفـض وتمسَّـك بهـا، فجميلـة هـي هـذه الصينيّـة، امـرأة تجعلـه رجلًا حقًّـا، -كمـا يُـردِّد مؤمـن دومًـا- فقـد أحدثـت في قلبـه حالـة لهفـة لـم يألفهـا مـن قبـل قَـطُّ، فأشـعرته شِـعرها، وجعلتـه كملـكٍ متـوَّج ليلـة تنصيبـه كلّمـا قابلتـه، فهـذا مـا يحتاجـه الرجـل، أن يكـون مـلكًا متوَّجًـا كل يـوم.

وفي لقـاء مؤمـن مـع حبيبتـه الصينيـة «لي» الأخير، ألمحـت إليـه أنـه ربمـا يكـون سـبب رفـض عائلتـه أن أختـه جوانـة وقعـت في الحب، وهـذا مـا يفسِّـر رفـض الزيجـة. لـم يفـزع مؤمـن مـن قولهـا، بـل قـال مُتمنِّيًـا حـدوث ذلـك:

- كل يـوم يُـدق البـاب لأجلهـا لكنهـا ترفـض، وجميعنـا نتـمنَّى ذلك.

قاطعته بلؤم سيدة أربعينية، وقالت:

- هذا لو كان رجلًا عاديًّا، وليس أأ..

فقاطعها:

- تقصدين أخاكِ؟!

أشارت بنعم. فسألها ثانية:

- أهو من أخبرك ذلك، أم أنكِ تتوقعين؟

- لا، لـم يخبرني ولكنـه مجـرد إحسـاس. فهـو دائـم الحديـث عنهـا، وعـن إعجابـه المفـرط بشـخصيتها الفريـدة.

استعاد مؤمن هدوءه سريعًا بعد حماقة العصبيَّة، وبدأ يسترجع حديث جوانة عنه من أنه مَثَلها الأعلى، وراح يربط خيوط التفاصيل بعضها ببعض حتى بدا له ما كان خافيًا. وفي اليوم التالي، فجَّر مؤمن القنبلة الموقوتة من دون تحرٍ أو رويّة، وألقى كل ما في جعبته لوالديه عن العلاقة التي نشأت في السر بين جوانة ورئيسها في المركز، وأنهما قررا الزواج على الرغم من فارق السن والدين والثقافة. ثم سكت من غير حاجة للسكوت، واستكمل بوجهٍ عبوس يحمل بين طيّاته النكران، وقال:

– هذه أنانية منكما، تريدان سلب سعادتي وفرحتي لإسعاد جوانة، ولو كان ذلك على حساب تعاستي العمر كله. لن أنسى لكما هذا أبدًا، ولن أُقايض على حقِّي مهما كلَّفني الأمر.

حاولا مجاراته في الحديث، لكنه لا يأبه لأحدٍ حينما يكون مُغرمًا بشيء، وتركهما وغادر.

وأثناء مغادرته البيت، دخلت جوانة، لم يلتفت لها ومشى وهو يحمل في قلبه مشاعر مختلطةً تجاههم أجمعين، بينما جوانة تصنّعت أمامهما أنها لا تفهم ما يدور، فأمطروها بالأسئلة وأحاطوها بالشكوك عن كل ما أدلى به مؤمن، فأنكرت كل ما قيل، وأنها مجرد افتراءات وخيالات من بنات أفكاره ليفعل ما يريد. فسكت الوالدان سكوت المضطر قليل الحيلة، لا سكوت المقتنع بدحض الحُجَّة بالحُجَّة.

توالت الأيام ولا يزال الخصام سيد الموقف الراهن، كلٌّ منهم يدور في فَلَكه الخاص، إلَّا مؤمن الذي قرر أن ينتصر لحبه كما يقرأ عن الأبطال في الروايات الرومانسية، فقد اقتنع أخيرًا بعرض

حبيبتـه بالهجـرة إلى الـصين، وتحديـدًا إلى جزيـرة منعزلـة عـن العالـم بجـوار الحـدود الصينيـة، الحيـاة فيهـا بسـيطة جـدًّا مـن دون عوائـق، ولـن يتكلَّـف زواجُهمـا أيـة تكاليـف سـوى تذكـرتَيِ السـفر وفقـط، وهمـا كعاشـقين لا يحتاجـان مـن الكـون سـوى الحـب، -كمـا تقـول الروايـات والأسـاطير- وفي ليلـة امتزج فيهـا الفـرح والحـزن يناجـزان بعضهمـا، سـافرا إلى الجزيـرة ليبـدآ معًـا حيـاةً جديـدةً، وأرسـل مؤمـن رسـالة إلى أختـه عبر الواتسـاب يقـول فيهـا: «الآن نحـن علـى متن الطائـرة، سـافرنا إلى أوروبـا، وحين نسـتقر سـنبلغكم بالتفاصيـل، فنحـن مَـن نُقـرر لحياتنـا. سلامي للجميـع حتى نلتقـي مـن جديـد».

مضـت الأيـام الأُوَل كالكابـوس علـى عائلـة جوانـة، وكذلـك تـاو يـونج الـذي أصيـب بالهلـع جـراء مـا حـدث، فلـم يكـن يظـن أن أختـه يمكنهـا أن تغتالـه بهـذه الطريقـة النكـراء.

(2)

أذاعت النشرة الداخلية للمركز استقالة الدكتور والباحث تاويونج.

أوجس هذا النبأ في نفس الدكتورة جوانة خيفةً وقلقًا، لا سيَّما بعدما علمت أنه غادر أمس إلى الصين. دارت التخمينات والظنون في عقلها من أن هنالك رائحةً خبيثةً لم تألفها بعدُ من وراء هذه الاستقالة غير المتوقَّعة، وما غذَّى ذلك الإحساسَ في قلبها أن الدكتور صبري مدير المركز هو أيضًا داهمه ذات الشعور الغريب حينما تباحثا في الأمر معًا.

فقالت جوانة مؤكِّدة حَدسها المبنيَّ على قوة الحجة وسداد المنطق:

– ليس فقط الاجتماع الأخير هو الذي أوغر صدري ضده يا دكتور، بل أبحاثه الأخيرة كلها عن الفيروسات الدقيقة والصراعات الجينية، فضلًا عن محاولاته المتكررة للإجابة عن سؤالٍ يصعب تخيُّله على أرض الواقع!

لم يرغب الدكتور صبري في مسايرتها لهذا التخمين، وقال بحرص:

– أشعر بريبة كما تشعرين، لكن لا مجال عندي لأي اتهام له، فالرجل خدم في المركز بإخلاص، وأراد بكل هدوء أن يرتاح إلى الأبد كما أخبر، فلا وجود لأي مؤامرة يا جوانة!

– أنا أعلم الناس به يا دكتور، لذا أؤكد لك أن الاستقالة المفاجئة تلك تحمل في طياتها الكثير من الألغاز ترتقي عندي لمؤامرة دُبّرت في الليل.

بتحذيرٍ عاقلٍ خالٍ من أي صدام، ردَّ قائلًا:

– هذا ادِّعاء واهٍ يا دكتورة، ولم يرتقِ حتى للتخمين! فالحذر من شيوعه كيلا تسود الفوضى.

تفهَّمت جوانة حرصَه الشديد على سُمعة المركز وعلمائه.

ثم دنا منها وقال في رحابة:

– دعكِ من هذه الوساوس، واستعدِّي لاحتفال اليوم.

الدكتور تاو يونج، صيني، وباحث فذٌّ، وكثرة علومه المختلفة جعلته متواضعًا، ومنحته بصيرةً ثاقبةً في شتى مناحي الحياة، ومطَّلِعًا أيضًا على الثقافات والأفكار والأديان، فما إن تُخالطه إلَّا وتشعر براحةٍ غامرةٍ. أعجبته القاهرة والقاهريون حينما حضر مؤتمرًا علميًّا في مصر، فمكث فيها ولم يغادر من وقتها، وعُين رئيسًا لقسم الفيروسات، وهو الذي علَّم الدكتورة جوانة من خبراته، وربَّاها في مَعامِله، وأغدق عليها من تجاربه العلمية حتى بدأت تُطلَب في محافل دولية لإلقاء كلمة، ولذلك ليس في جعبة الدكتورة جوانة اتهام صريح له، لكنها تعلّمت منه أن وراء كل نكتة نكبة.

في نهاية اليوم كانت هناك ترتيبات جديدة تخصُّ القسم، ومن جميل ما جاء فيها أن الدكتورة جوانة أصبحت رئيسة القسم خلفًا للدكتور يونج، فأقيم لها حفلٌ يليق بمهامها الجديدة، وكان أول قرارٍ اتخذته أن جعلت من الدكتورة خديجة نائبةً لها على الرغم من اعتراض البعض، لكنها عزمت عليه، وأبلغت الإدارة أن هذا من صميم عملها وتطويرها للقسم وأدائه في المستقبل. والاعتراض على خديجة لم يكن وليد اللحظة، بل لعدم تمكُّنها من إثبات جدارتها لهذا المنصب، ولكونها أيضًا صديقةَ جوانة المقرَّبة، وبغير ذلك ما كانت لتكون.

ووسط تلك المشاحنات الكلامية، وقَّع المدير على قرار جوانة ثقةً فيها ليُنهي هذه الأزمة، وقال لها:

– أولُ تحدٍّ يا جوانة، أتمنى ألَّا تخسريه.

حملت على عاتقها هذه الكلمة، وقَبِلته تحدِّيًا. عادت جوانة إلى بيتها بعد يوم عصيب، نُصِّبت فيه مزيدًا من الأعباء لكنها سعيدة بها، وجدت أولادها على غير عادتهم جالسين يتسامرون معًا من دون أي شِجار، ولِمَ لا يفعلون، وقد جمعهم صوت خالهم عبر الهاتف، هرعت إليهم وانتزعت منهم الهاتف وقالت باشتياقٍ خانقٍ:

– وحشتني يا مؤمن، كيف حالك؟!

وبكت، ثم تماسكت وأردفت:

– من أين أتيت بهذه القسوة؟! أبواك في حالةٍ صعبةٍ.

لكنه عبر فوق كل تلك المشاعر والآهات، وقال بصوتٍ يغمره صمود مفتعل:

– لم يكن لديَّ خيار يا جوانة، ولولا إصرار أبي وأمي ما فعلت ذلك، وبعيدًا عن زواجي أنتم تعلمون أن الهجرة كانت حلمي منذ الصغر، فلِمَ العجب الآن؟!

تنهَّدت جوانة بصبر، ثم عاودته السؤالَ عن المعيشة في أوروبا وأين يقيمان تحديدًا؟ تلكأ قليلًا في الإجابة مما أثار في نفسها الضجر والريبة معًا، ثم أجابها أن كل شيء على ما يرام من دون أن يخبرها بأية تفاصيل أخرى! وفجأة سمعت صوتًا بجواره اعتادت عليه من قبل، يُشبه صوت الدكتور تاو يونج، فسألته بلهفة صارمة:

– كأني أسمع صوت الدكتور تاو يونج بجانبك؟ أهو فعلًا؟ ماذا يفعل عندك في أوروبا وقد قال إنه رجع إلى بلده الصين؟!

جاء صوت مؤمن مضطربًا:

– لا، لا، ليس هو، بل خُيِّل إليك أنه هو.

ثم أغلق الهاتف متحجّجًا بانشغاله الطارئ بعد أن وعدها بمعاودة الاتصال مرة أخرى!

أيام والهموم تلازمها حيث حلَّت، حتى جمُدت عواطفها، وانتُزعت من قلبها معانٍ جزلة استُبدلت بانفعالاتٍ لا تهدأ؛ مهامها الجديدة، أزمات مفتعلة في العمل بسبب خديجة، شجار أولادها، والداها وحزنهما الدائم على فراق مؤمن، فضلًا عن أحلامها التي تريد أن تحققها.

كل هذا ولم تَكلَّ يومًا، بل ما زالت صامدةً، وصمدت معها الأيام أيضًا، إلى أن جاء ذلك اليوم العجيب الذي انقلبت فيه موازين الأيام واختلَّت أشياؤه؛ إذ تجلّت ظاهرة غريبة فُرضت

على مائدة أولويات البحث في المركز، حين جاء إعلام من المركز القومي للإحصاء والتعبئة يفيد بأن مواليد هذا الشهر من الإناث، ولم يسجل حالةً واحدةً من الذكور!

نكسة تاريخية مهيَّأة للتدوين! فإن صحَّ ذلك ستكون سابقةً لم تحدث في التاريخ العلمي العالمي قطُّ!

تلقَّف الباحثون هذا النبأ بصدمةٍ موجِعة ومحيِّرة، وتحوَّل المركز إلى استنفار عام يبحثون عن كُنه الأزمة وكيفية الخروج منها. يومان كاملان بلا أي بادرة أمل منذ شيوع الأزمة بين أروقة المركز، الذي جاءته الأوامر بالتعتيم الكامل على الخبر مؤقتًا.

كانت الدكتورة جوانة على رأس الفريق البحثي المخوَّل له إيجاد تفسير لهذه الظاهرة الكارثيَّة، دوَّامة تبتلع جهدهم الجهيد، كأن الوقت قطار سريع لا يستطيعون اللحاق به، أبحاث ومراجع وتحاليل وإشاعات بلا فائدة، أسئلة تُرمى كالقنابل، وإجابة محصورة في سويداء القلب من دون بَوح. تخمينات تدور كالمعارك في عقول، وأحاسيس تؤكد الشكوك، وأعيُن مُتخمة بالدموع وسط أفئدة تتوجَّع من قِلَّة الحيلة، ثم صراخ مكتوم كاد ينفجر في الأعماق، كاد يخرج للعالم ويُشهِر جراحه المدفونة ويقول بأنين مشحون: «أغيثونا»!

وكأنّ الحاضر سلَّط سيفه على رقبة المستقبل يريد جزّها جزًّا، ومحق هوية الماضي بممحاة لا تترك أثرًا.

يومان آخران يمُرَّان من دون جدوى، بالضبط كمرور سفينة بطيئة مُحمّلة بالزاد في عرض البحر إلى أُناس جوعى على الشاطئ

الآخر. وفي اليوم الخامس خرجت وفريقها بنتيجة واحدة واضحة تمامًا، وهي رسالة مختصرة تنمُّ عن بلوى مُقبلة ستحرق الجميع:

– «لا شيء ملاحَظ في كل الأبحاث التي أجريناها حتى الآن، لكن ثمّة مخاوف من مؤامرة كبرى تُحاك بالبلاد».

لم يقتنع المدير بهذا التصوُّر، الذي وصفه بالواهي والرخو، وطالب بسرعة إيجاد تفسير علميٍّ دقيق لِما يجري، وإلّا ستكون العاقبة وخيمة. هنا جُدِّد الأمل في نفوس الباحثين ثانية، خاصَّة بعد الجلسة المطوَّلة بين جوانة وهيئة البحث العلمي وبين الرئاسة، وانفضَّ الاجتماع بتوصيات عدَّة، كان في مطلعها أن جوانة وحدها من تمتلك القرار في أي طارئٍ يحدث، فضلًا عن الاتصال الدائم والمباشر بينها وبين الرئاسة.

كافَّتهم اعتمدوا القرار لِما للدكتورة جوانة من خِبرات ودراية، إلَّا الدكتور صبري الذي تقبَّله جبرًا، بينما في نفسه منه شيء كتمه ولم يَبُح به، لكن العين فضَّاحة.

جاء اليوم السابع يجرّ في ذيله أنباء حزينة: «بقاء الحال كما هو الحال، لا ذكور، ولا تفسير». التعاسة تستهدف المتفائلين، تُبدِّل أَمنَهم خوفًا، وتعصف باستقرارهم الموهوم في خلايا المخ، وترمي بطموحاتهم وتطلُّعاتهم على الأرض نحو اللاشيء واللامفهوم الذي يحدث! وبغتةً انتبهت خديجة لشيءٍ ما ربما تنبلج منه إجابة تكشف الغيوم عن الضحالة المميتة الواقعة، فقالت بهمسٍ لجوانة:

– الدكتور يونج!

ارتسم على وجه جوانة علامة استفهام غير فاهمة ماذا تعني، فأعادت بإيضاح:

- ألا تتذكرين حديث الدكتور يونج عن انقراض الرجال؟!

طقطق شعرها من هَول المصيبة، فقد صدَق ظنّها، وقالت كمن وجدت حل اللغز:

- هي، هي المؤامرة كما خمَّنت.

عنَّفت نفسها وهي تضرب كفَّ الحزن بكفِّ الأسَى من أنها لم تنتبه لهذا منذ بدء الأزمة رغم استشفافها لتلك الطامَّة من بداياتها، ثم سحبت خديجةَ من يديها واقتحمتا مكتب الدكتور صبري:

- وجدناها يا دكتور، ألم أقل لك هذا من قبلُ؟

ذُهل، ثم ابتلع ريقه وقال:

- ما الأمر؟! ماذا حدث؟!

- لم يكن ادِّعاءً يا دكتور، بل إنها مؤامرة ضدنا، وبطلها الدكتور يونج.

انتفض واقفًا:

- كيف؟!

- ما يحدث أخبر عنه الدكتور يونج قبل رحيله من خلال اجتماعه الأخير، وكذلك بسؤاله على صفحته الشخصية على الفيسبوك، والدليل أننا فتشنا على صفحته لقراءة المنشور مرة

أخرى فلم نجده، أي أنه حذفه قبل انتشار الكارثة في مصر بأيام، كأنه على علم مسبق بالميعاد تحديدًا.

استكملت خديجة، وقالت:

- نحن أمام فيروس مجهول، سينهش في لحومنا تدريجيًّا.

تمعَّن قليلًا في قولها، ثم قال:

- فيروس!!

-نعم فيروس، وفتَّاك أيضًا. ولا سبيل لمواجهته إلَّا بالوصول إلى الدكتور يونج.

- إن صح ذلك ستتم محاكمته بتهمة الخيانة، ولذلك علينا البحث أولًا وتجميع أكبر قدر من المعلومات قبل شيوع الكارثة والحديث بشأن علاقة الدكتور تاو يونج بالأزمة.

على الفور كلّفت الدكتورة جوانة خديجة بجمع كافة المعلومات والأبحاث عن الشهور الأخيرة للدكتور يونج في المعمل قبل مغادرته، وكذلك أبلغت الرئاسة بما جدَّ، والتي بدورها أبلغت الأجهزة الأمنية بكل التفاصيل، آمرةً إياها بالتحقيق الموسَّع والعاجل والسري عن كل ما يخص الدكتور الصيني تاو يونج داخل وخارج المركز.

وكما هو معلوم، لن تتمكن من إخفاء معلومة في مصر لأكثر من أسبوع.

تسرّب الخبر للإعلام، وشاع كالنار في الهشيم في أرجاء المحافظات وسط استقبال حافل بالسخرية والنكات والمزاح، وراح كلٌّ إلى غايته يدلو بدلوه ويُدندن ويغنّي على ليلاه، ويستعرض

حكاياته وتنبؤاته عن مصير الحياة في مصر بعد انقراض الرجال. النساء يقولن: «ستنتهي الفوضى وتختفي الأمراض». والرجال يقولون: «سنرتاح من نكدهن ونظفر بالحور العين».

وفي هذا الجوّ المشحون بالتنظير، رسخ في يقين الدكتورة جوانة أن هناك مؤامرةً ما تُغزل خيوطها في الخفاء، وللأسف أخوها جزءٌ منها، ووقع في نفسها أسئلة لا تُحصى، كان في مقدمتها نظرة زملائها لها تجاه أخيها الخائن إن عَلِموا.

كبتت حسرتها في قلبها، وقالت بصوتٍ عالٍ مرارًا وتكرارًا:

– بئس الأخ هو إن فعل.

(3)

حلَّ الكدُّ وارتسم التبرُّم على الوجوه، وضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، كأنه حلمٌ مُفزع يراودهم جميعًا.

باندفاع شديد، اقتحمت خديجة غرفة عمليات المركز، وقالت على عجَل:

– دكتورة جوانة، الدكتور فيكتور وصل من أمريكا في التوّ، وينتظرك في مكتب الدكتور صبري.

تركت جوانة غرفة المتابعة، وأسرعت إلى الدكتور فيكتور وكأنه المنقذ الوحيد من الشرور القادمة. استقبلها بحضن أبوي دافئ لفت انتباه الموجودين، وقال:

– ماذا حدث؟!

ردَّت بصوتٍ مفعم بالقلق والهمّ:

– لا أقول فوضى عارمة ولا حتى شقاءٌ منذِر، وإنما هي شرارة ما قبل الانهيار الكبير.

كاد ينتفض من هول قولها، ومضى معها مسرعًا إلى غرفة العمليات يتابع عن كثب كل ما جرى خلال الأسبوعين الماضيين،

وأيضًا ما يجري من الأبحاث التي تُجرَى يوميًّا في المركز، وكذلك التقارير الواردة من المركز القومي للإحصاء والتعبئة، وقرأ آخر التقارير الواردة صباح اليوم بتركيز شديد، وجاء فيها:

«لا تزال حالات المواليد من الإناث في تزايد مستمر، بينما حالات المواليد من الذكور صفر. حيث سجَّل المركز اليوم ما يلي:

الإناث: أربعة آلاف.

الذكور: صفر.

تغيَّرت أسارير وجهه كأن نكبةً من نكبات الدهر ألمَّت به وحده، فبدا من الوهلة الأولى أنه حمل هذه المسؤولية الجسيمة على عاتقه، بالضبط كما فعلت جوانة منذ اندلاع الأزمة. أعاد التدقيق مراتٍ ومراتٍ في البيانات والتقارير، وأول ما قاله لجوانة:

– لا بد من تدعيم الفريق البحثي ببعض المخضرمين الذين أثق في كفاءتهم.

– كل ما تريده يا دكتور، خذ كافة التدابير التي تراها مناسبة لك، وأنا كفيلة بحلحلة العراقيل.

تحلَّقوا حوله كأنهم يستدفئون بالجمر في ليالي الشتاء. ومن دون إضاعة ثانيةٍ، اتصل بالباحثين الذين عملوا معه في تجارب بحثية سابقة في العديد من المراكز البحثية العالمية، كانت جوانة تعرف بعضَهم حينما عملت مع الدكتور فيكتور لشهور في المنحة. وفي ذات الوقت أبلغت جوانة الدكتور صبري بما جرى، لكنه رفض رفضًا تامًّا، وعلّل قائلًا:

– وافقنا على طلبك بمساعدة الدكتور فيكتور كونه عالمًا فذًّا في مجاله ولديه خبرات واسعة، حسبما قلتِ، والآن يطلب هو المزيد من الباحثين، لماذا؟ ما يحدث ليس في صالحنا، وربما يثير بلبلةً في المجتمع!

– البلبلة وقعت بلا ريب، نحن أمام كارثة بالفعل.

– وهل تظنين أنهم يمتلكون العصا السحرية، إنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا أكثر مما يُفعل هنا.

تعجَّبت جوانة من حديثه، وبكل بإصرار قالت:

– أنا هنا المخوَّلة بإدارة الأزمة بتكليفٍ شخصي من الرئاسة، ومعي كافة الصلاحيات لاتخاذ أي إجراءٍ في أي وقت أراه مناسبًا.

لم تتوانَ جوانة لحظة في أخذ حقها بحسم الأمر، فهي مُدركة عن يقين أن ما يدور في المجتمع يفوق قدرة العلم، وغير قابل لأية حلول علميَّة وشيكة، لكنها تحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه. في اليوم التالي حضر الباحثون من مختلف الجنسيات، وكان أول قرارٍ اتخذه الدكتور فيكتور، بعدما بات رئيس الفريق البحثي وجوانة نائبته، أنه ألزم بعضهم بمراجعة كافة التقارير الواردة والسابقة بعناية شديدة، والبعض الآخر بمتابعة آخر تطورات الأبحاث، وأمر جوانة بتكليف شخصي ومعها خديجة، بإجراء أبحاث وتحاليل دورية لأكبر عدد من المتزوجين الجدد، والمنجبين الجدد أيضًا.

ثلاثة أيام وهم على حالهم هذا، يُمنّون النفس بأن يكتشفوا شيئًا غير مألوف، لكن للأسف لم تثبت التحاليل والأشعات أية عشوائية جينية ظاهرة، وهو ما أثار تبرُّم وعجز الباحثين عن

إجابة الأسئلة: ماذا يحدث؟! وماذا سنقول للناس؟! لكن أحد الباحثين المصريين كان لديه حلٌّ مؤقت يجعلهم يعملون في هدوء، وفي نفس الوقت يريح قلوب الجموع من هذا الفزع الذي يطل على الوجوه يوميًّا، وقال:

- نُطمئنهم.

- ماذا تعني؟

- نطمئنهم ولو بالكذب، فنقول مثلاً أننا وجدنا الحل ونقوم حاليا بتحضير المصل الخاص به، وربما يأخذ أشهُرًا. ولحين هذه المدة نعمل في هدوء.

اعترض الدكتور فيكتور، وقال منفعلًا:

- في مثل هذه اللحظات لن يُنجينا إلَّا الصدق والشفافية.

لم تمضِ إلَّا ساعة، وخرج الدكتور فيكتور على الإعلام في حوار مفتوح يُخبر الجموع الحقيقة كاملة من دون أي خداع أو تزييف، وقال في حواره الإعلامي الأول: «ما زال عندنا الوقت للوقوع على مصدر الفيروس وحقيقته، ولا أكتمكم سرًّا أن الأمر في غاية الخطورة، لكنه يحتاج للصبر، لذلك، أقول لكم بكل أمانة ووضوح، إنه بعد الفحص والتمحيص والدراسة نحن أمام فيروس جيني مجهول يصعب تحديد مساره بدقَّة».

أُلقيت الرهبة في قلوبهم بعد هذا البيان المقلق، وتحوّلت موجات السخرية والاستهزاء التي لم تهدأ منذ نشوء الأزمة على مواقع التواصل الاجتماعي وبين الناس، إلى خوف متفاقم كمَّم الأفواه، ومصير مجهول ينتظر البلاد والأجيال القادمة. ولم تكن

الرئاسة بعيدةً عن غرفة العمليات، إذ جاء العتاب محمولًا برسائل شديدة اللهجة إلى الدكتورة جوانة والدكتور فيكتور والفريق برمَّته من الرئاسة، كون أن الحالة النفسية هي نصف العلاج، واعتُبر أن هذا التصريح غير منضبط من باحث وعالم كبير مثله، وثمَّن الدكتور صبري الذي حمل هذا العتاب إلى الفريق البحثي، وأضاف قائلًا:

– الرفق واللين يا دكتور، العالم يتفرج علينا.

ردّ الدكتور فيكتور من دون تردد:

– نحن في أزمة حقيقية، ولا بد من معرفة مصدر هذا الوباء الذي سيقضي على أجيال بأكملها. ولا بد أن يعي الجميع فداحة الكارثة وما نحن مقبلون عليه.

سكت الدكتور صبري قليلًا، ثم قال مبارزًا القول بالقول كمن شعر بخجله ويُريد القصاص:

–كيف نقف عاجزين هكذا أمام فيروس ولدينا أفضل العلماء في العالم، أليست هذه أضحوكة؟

استغرب الدكتور فيكتور، وأجابه بسؤال محرج:

– كيف تكون دكتورًا باحثًا وتفكر بتلك الطريقة؟ قل لي ماذا نفعل!

تلجلج ثم قال:

– أنا دكتور ممارس، ولستُ باحثًا.

– لم أفهم، ماذا تعني؟!

أفلتت من الدكتور خديجة ضحكة كتمتها سريعًا، فهي تعلم حقيقة تعيينه في المركز. ثم تدخلت الدكتور جوانة وأنهت هذه المساجلة، وقالت:

- سأشرح لك الأمر لاحقًا يا دكتور.

أبدى الدكتور فيكتور تفهُّمه لِما قيل، ووجَّه للدكتور صبري نُصحَه:

- هناك الكثير من الحالات يقف أمامها العلم عاجزًا، أو بالأحرى يأخذ وقتًا لمعرفة ما يحدث من طفرات وتغيُّرات أمامه، وهذه حالة من الحالات، لذلك أشعر بما تشعر، لكننا نتعامل مع فصيلة فيروسية جديدة لأول مرة أراها في تاريخي البحثي كله. لا نجزم أنها مؤامرة كما تقول الدكتورة جوانة وتؤكد لي دائمًا، ولكن نقول إن هناك لغزًا غير مفهوم، وهذا التعريف يجعلنا نتجرَّد في بحثنا عن مصدر المشكلة. ولأجل ذلك نحن مجتمعون هنا سيادة الدكتور. هل فهمتني؟!

أومأ برأسه إيماءة خَجِلة، ثم غادر.

التفت الدكتور فيكتور إلى جوانة وهو يعضُّ أضراسه، ويهمس في أذنها:

- أوصلت المحسوبيَّة لهذا المكان؟!

في اليوم التالي خيَّمت البلوى على جنبات الحياة في مصر، وانتاب المجتمعَ حالةُ هياج عام لا نظيرلها في التاريخ القريب، فقد سيق الجهَّال إلى العرّافين والدجالين يبحثون هم الآخرون عن مخرج كما يبحث الباحثون، فتزاحم الرجال بنسائهم على

أبـواب الدجـالين يُلبُّـون طلباتهـم لأجـل إنجـاب الذكـور، خاصَّـة بعدما انتشـرت بعـض الأخبـار عـن روحانيـات الشـيخ «الهـادي بأمر الله»، وقيـل عنـه إنـه يـوزع علاجًـا بالأعشـاب فيـه شـفاء للنـاس مـن الـفيروس. تهافـت المتهافتـون حـول منزلـه يلبـون ويدعـون، وبـدأت حملاتـه تنتشـر في الإعلام بطريقـة مذهلـة، واسـتغلت الأزمـةَ بعـضُ الشـركات الطبيـة وراحـوا يُروِّجـون لنوعيـة معينـة مـن الأدويـة التي تسـاعد في زيـادة هرمونـات الذكـورة وإنجـاب الذكـر المنشـود.

وبين هـذا وذاك، كُذّبـت كل تلـك الدعـوات والادعـاءات مـن الدكتـور فيكتـور، وكلّـف الدكتـورة جوانـة بالتحـدّث للإعلام كل يـوم واطلاعهـم علـى مسـتجدات الأمـور، فاغتنمـت جوادهـا الـرائج، ثقـة الجمهـور فيهـا، ومضـت توعّـي النـاس مـن مخاطـر المشـاركة في تلـك المهزلـة، وطمأنتهـم بـأن الأمـر ليـس مقلقًـا، وأن تلـك الغُمّـة سـتزول في القريـب العاجـل.

لكـن للأسـف سـاد الجهـل، وحيـن يُسـود الجهـل لا تنتظـر انفراجـةً وشـيكةً.

وعلـى الرغـم مـن التحذيـرات والتشـديدات الأمنيـة، لـم يكـف النـاس عـن الذهـاب لكل مـن يذيـع صِيتـه فجـأة كـي يرزقهـم الله بالولـد، سـواء أكان طبيبًـا يدّعـي العـلاج أو عرَّافًـا يتنبـأ بالمعجـزة. وفي بيانهـا اليـومي خرجـت الدكتـورة جوانـة علـى النـاس لترشـدهم سـبيل الرشـاد، وترهبهـم مـن مسـالك الدجَّـالين والعـرَّافين، وتُرغِّبهـم في انتظـار مـا سـتسـفر عنـه الأبحـاث العلميـة، وقالـت مخاطبـة عاطفتهـم الإيمانيـة:

«أيها الناس هذا وقت العلم، فلا تُنصتوا إلى العرَّافين والدجَّالين بمختلف توجهاتهم وانتماءاتهم، فوالله لن يقدروا على خلق ذبابة وإن اجتمعوا على صعيدٍ واحد. إننا أمام ابتلاء من الله، فاحمدوه أننا لم نُمنع من الإنجاب عمومًا، وانتهزوا فرصة وجود ذكوركم في حياتكم وأحسنوا إليهم، فلعلّها تكون فرصة لإعادة صياغة الأفكار، فالإناث أيضًا يمكنهن حمل الراية كالذكور تمامًا، فها أنا امرأة وأقود فريقًا بحثيًّا فيه مختلف الجنسيات والفئات والأعمار والكفاءات، ألا يعدُّ هذا حملًا للراية التي لصقتموها بالذكور فقط دون وجه حق؟! أيها الناس، أخيرًا أقول لكم، اصبروا، فلا حاجة لنا سوى الصبر والدعاء بيقين إلى الله».

لا شك أن هذا الحديث هدّأ من روعهم، لكنه لم يطمئنهم.

مضت أيام قلائل على الهدوء النسبي والتعايُش مع ظل صراع الأزمة، إلى أن فجّر المركز القومي للإحصاء والتعبئة مفاجأة مدوّية من العيار الثقيل، حيث جاء فيه بيانه العاشر، واعتبر أنه البيان الذي قصم ظهر الحياة في مصر، ما يلي:

«من خلال التقارير الوافدة إلينا من المدن والقرى والنجوع وكافة المحافظات، وجدنا ما هو لافت للانتباه والتحذير، من أن هناك طفرة غير مسبوقة في وفاة كبار السن من الرجال، وتحديدًا من هم فوق الستين عامًا، ونحيطكم علمًا بأنه لم يكن يلاحَظ قَطُّ هذا الموت الغريب المتصيد لهذه الفئة إلَّا في نهاية اليوم، ففي الأيام الثلاثة الماضية كانت معدلات الوفاة أكبر من الطبيعي بقليل، حتى جاء اليوم الرابع وهو اليوم الكارثي الذي تضاعف فيه عدد الوفيات، ونتوقع أن يزداد العدد في الغد.

وما زاد من العجب أن التشخيص الوارد إلينا من المستشفيات والأطباء لجميع الحالات شبه مكرر، وهو هبوط حاد نتيجة اضطراب مفاجئ في هرمونات الجسم. وسنوافيكم بالتفاصيل إذا ما جدَّ لدينا جديد».

سأل أحد الباحثين بخوفٍ:

- ماذا يعني ذلك؟!

أجابت الدكتورة جوانة باكية وهي تحدِّق النظر في الأرقام الصاعدة والهابطة في الشاشة العملاقة في الغرفة:

- الفيروس المجهول تحوَّر.

بعد مضي ساعة استقبل الدكتور فيكتور بعضًا من الباحثين الغربيين الجُدد الذين أرسل في طلبهم للمساعدة أمس، وأول قرارٍ اتخذه كان توجيه الشكر لبعض الباحثين المصريين وإدراج الباحثين الأجانب مكانهم. أثار هذا القرار ريبة في صدر الدكتورة جوانة، فلم تكن تعلم شيئًا عنه، لكنها سكتت، بل بالغت في السكوت! شعر الباحثون المصريون بالإهانة وغادروا الاجتماع حاملين شكواهم إلى الدكتور صبري مدير المركز، فاستدعى جوانة لمعرفة ما يدور في الكواليس، فقالت له بكل أسفٍ:

- الدكتور فيكتور مُصرٌّ على ذلك، وحاولت معه لكنه رفض!

هاج أحد الباحثين، وقال مستنكرًا:

- هذه بلادنا، وهذا مُصابنا، ولا حقَّ له أن يعاملنا هكذا، فنحن أفنينا عمرنا كله لأجل مصلحة البلد.

اعترضه باحثٌ آخر، وقال:

– كرامتنا محفوظة في جميع الأحوال، فالرجل وجَّه لنا الشكر بكل أدب، واختار لنفسه فريقًا يفهمه ويفهم كيفيته في العمل، فهو أهلٌ لذلك، لِما له من باعٍ طويل في الأبحاث العلمية، وعن نفسي سأبقى في المركز أتابع من غرفتي إذ ربما يحتاجون إليّ في أي لحظة.

لم يُعجب هذا الحديث الباحثين الآخرين، وتركوا المركز ورحلوا.

خبير هو بالتعامل مع الأزمات رغم ضجره الدائم. ففي سرعة البرق أعاد دكتور فيكتور توزيع المهام من جديد، فطلب من جوانة وبعض الأجانب مراجعة كافة الإحصاءات والتقارير بعدد الوفيات وأسبابها قبل الأسبوع المشؤوم وبعده مع إبداء ملاحظاتهم، وأسند إلى البعض الآخر برفقة خديجة سرعة سحب عينات وعمل فحوصات لازمة لمن هم فوق الستين عامًا، سواء الأحياء منهم أو الأموات.

أيامٌ والوضع كما هو عليه، فمن جهة يُمسي المجتمع ويُصبح على صراخ وعويل وموت وفراق، ومن جهة أخرى يُعقد الاجتماع الاعتيادي للباحثين للاطّلاع على الأبحاث والفحوصات التي لم تؤتِ ثمارها حتى اللحظة.

(4)

تفتَّق ذهنه لحيلة داهمته فجأة، فقال وهو يتوقع ثورة هائلة تلقاء قذيفته تلك:

- لا حيلة أمامنا سوى تجربة بسيطة نراقب من خلالها تفاعلات جينية جديدة، فإذ ربما تكون هي المنجية.

- أي تجربة تقصد يا دكتور فيكتور؟

أجاب وهم حوله يُنصتون بنهم شديد على طاولة الحوار:

- أجنبيٌّ يجامع مصرية، وننتظر ما ستُسفر عنه النتائج. إذ ربما تكمن الأزمة في جينات المصري.

انتفضت الدكتورة خديجة غاضبة، وقالت بعنفوان مدافعةً عن شرفهن:

- هذا دجل يا دكتور، ونساؤنا ليست فئران تجارب.

امتص الدكتور فيكتور غضبها وقال:

- هذا مجرد افتراض ربما يُفضي لنتيجة.

حلَّل هذا الاقتراح أحد الباحثين وقال:

– أو نزوِّجهما، إذا كان الاعتراض فقط على الطريقة!

وقع في قلب جوانة الشك تجاهه، فهل يُعقل ما يُقال؟! باتت كل أفعال الدكتور فيكتور الأخيرة وبعض الباحثين ضربًا من الجنون، فمنذ استغنائه عن الباحثين المصريين على الرغم من كفاءتهم، واستدعائه للمزيد من الباحثين الغربيين مؤخرًا، وفي نفسها شك مما يدور رحاه في الغرفة من أفكار واقتراحات، لكنها مرغمة على السكوت الآن فقط، ريثما تختمر الظنون بداخلها. والدليل في ظنّها؛ أنه يقترح الآن تحليلًا خارج إطار الأعراف البحثية والعلمية!

ثارت التساؤلات في عقل جوانة، مَن يريد قطع سلالة أحفاد الفراعنة إلى الأبد؟! غموض مُريب يكتنفُ جميع الأحداث الدائرة في المجتمع، فكيف لفيروس أن يتحكَّم في نوعيَّة المولود؟ ثم يحدد مَن يموت ومن يعيش؟ بل إن السؤال الأدق: «ماذا لو نجحت فكرة الدكتور فيكتور؟!» هل يصير المصريون من بعدها شعبًا مختلطًا؟ هل يكون هذا هو المخطط الجديد؟ لا أحد يملك إجابة يقينية جازمة، لكن الجميع يُدرك أن البلاد مقبلة على كارثة كبرى.

كالبرق، تسرَّب الاقتراح إلى الإعلام الغربي، ثم نُقل إلى الإعلام العربي والمصري بذات السرعة، ولا يُعلم مَن صاحب التسريب. الكل تبرَّأ منه، حتى إن إحدى الوكالات الكبرى في العالم، قالت عبر نافذتها: «مصر تتعرَّض لخيانة عظمى».

وكما تكون بداية النهاية، حيث في بيانٍ رسمي أعلنت معظم دول العالم أن مصر مستنقع لتفشي الفيروس المجهول، وأغلقت

جميع المعابر في وجه المهاجرين الفارِّين خوفًا من انتقال الفيروس إلى شعوبهم.

كانت تلك لحظةً فارقةً في عمر البلاد، إذ بدأت محاولات الهروب الجماعي للأثرياء والأغنياء معًا، أما الفقراء ومَن على شاكلتهم، فهم فئران تجارب لحين أن تنقشع الغُمَّة، أو يهلكون ككبش فداء. وكان أول الفارِّين من جحيم الفيروس هم أصحاب الشعارات الوطنية الرنَّانة، الذين صدَّعوا أدمغة الناس بحب الوطن، والانتماء إلى الوطن، والتضحية في سبيل الوطن بالنفس والمال والأهل. وها هم ينكثون بعهدهم وأماناتهم، ويهربون في أول فوج يغادر البلاد إلى بلادهم الثانية، وجزرهم المنعزلة عبر طائراتهم ويُخوتهم الخاصَّة. أما الأطباء والباحثون فالكثير منهم ضرب المثل في التضحية من دون شعارات يصاحبها ضجيج أو ثرثرة فارغة، حاملين أرواحهم على أكفِّهم بكل استبسال وفداء، كمحارب سلَّ سيفه ونزل ميدان المعركة يطيح برقاب الأعداء ولا يبالي.

تجري الأيام وفي طياتها تحمل ضيقًا يعصف بالقلوب ويخنق الأنفاس، ولا أمل في إعادة المسار ثانية إلى صوابه المفقود، فقد عشَّش اليأس غرفة الباحثين، وأمسى لا حديث يعلو فوق حديث المضاجعة، كأنه طوق النجاة الوحيد. البيانات الرسمية تتوالى يوميًّا على المركز صباحًا ومساءً، والعلم حتى الآن عاجز عن وضع تفسير دقيق لهذه الظاهرة الفتَّاكة، وكل ما طُرح من المنظمات البحثية العالمية المساعدة للفريق البحثي المصري على مدار الأسابيع التي تمر، مجرد تفاسير وتخمينات أنتجت أدوية لا تنفع ولا تضر.

لـم يركـن عقـل جوانـة للانسـياق خلـف فكـرة الدكتـور فيكتـور، وإنمـا تـرى ببصيرتهـا النابهـة أن الـبلاد أمـام مخطـط ماكـر، لكنهـا عاجـزة عـن فـكِّ طلاسـمه حتى اللحظـة. فـاقتراح الدكتـور فيكتـور مخيـف ولا أسـاس علمي لـه، ولـم يُـدرج تحـت أي مـسمًّى جيني ناجـح مـن قبـل، والأدهـى أن الدكتـور فيكتـور يعلـم ذلـك علـم اليـقين، ومـع ذلـك مُصـرٌّ بغرابـة تدعـو للشـك، وعلَّـل في أحـد اجتماعاتـه بالمسـؤولين حـول اقتراح المضاجعـة هـذا، أنـه أجـرى أبحاثًـا جينيَّـة تؤكـد نجـاح هـذه التجربـة.

وبقـي السـؤال الـذي يـراود جوانـة لبعـض الوقـت: مـاذا لـو نجـح هـذا الكابـوس؟!

***

كادت أن تنسى عائلتَها وسط زحمة الأحداث اليومية.

بينمـا هـي مشـغولة في أبحاثهـا، يسـأل عنهـا أبوهـا عبر الهاتـف، فتـخبره أنهـا بخير، ثـم فجـأة سـألت نفسـها، هـل أبوهـا يسـأل عنهـا أم عـن نفسـه؟! وكأنهـا الآن تذكَّـرت أن أباهـا فـوق السـتين عامًـا، وأن هـذا الـفيروس يسـتهدف هـذه الفئـة. حيـث منـذ بـدء الأزمـة وهـي تطـمئنُّ بفـزع يكـوي قلبهـا علـى والديهـا كلمـا سـنحت الفرصـة، وأبنائها أيضًـا، ونظـرًا لانشـغالها أرسـلتهم للعيـش معهمـا كي تشـعر بأمـان مـن ناحيتهـم أولًا، وثانيًـا تـولّي جهـدًا أكبر في عملها، كمـا لـو أنهـا المتضـررة الوحيـدة في العالـم!

تعـاود طـرح أسـئلة الاطمئنـان علـى أبيهـا، فيجيـب بشـوق مكتوم:

– كلنـا بخير، والأولاد أيضًـا بخير، لا تقلقـي، هـل مـن جديـد؟!

– للأسف يا أبي، نحن أمام فيروس مجهول يتحوَّر كل يوم.

أجابته بتلقائية من دون مراعاة لمشاعره، كونه بات أحد المستهدفين في أي وقت.

لكنه عاد يقول:

– أود أن أراكِ الليلة إن أمكن.

عرفت وقتها أن طيف الموت زاره. على الفور انطلقت إلى أبيها مصطحبة معها طبيبه الخاص، نظرت إلى والدها بقلب مفطور من الألم والطبيب يقلبه يمنة ويسرة، جاهد الطبيب لإيجاد حلٍّ لتسكين آلامه بعدما عجزت جميع المسكنات، لكنه يعلم أنه ليس عرَضًا، بل مرض غير معروف انتشر في أرجاء جسده، نخر في عظمه، وغيَّر ملامح جلده، وأبقاه على حالته الرثة تلك لا يقدر على المقاومة، فقط جعله مستسلمًا للتآكل الذاتي.

سألت جوانة الطبيب في همس:

– هل هو نفس الفيروس المجهول؟

– للأسف هو.

كرر أسفه، ثم قال:

– اعذريني يا دكتورة، مضطر لإبلاغ الجهات المختصة حتى يقوموا بفحص الحالة، كما هو الإجراء المعتاد لمثل هذه الحالات.

امتقع وجهها فجأةً، وقالت في صوت مبحوح من أثر الصدمة:

– لن أسمح بإهانة والدي حيًّا أو ميتًا ولو كان مصيري الموت. هل تفهم ذلك؟

– حضرتك تفعلين ما يفعله العامة حينما نطلب منهم ذلك! أعلم إحساسك، لكننا جميعًا في أزمة ستطيح بنا، فلعلَّ حالته تكون سببًا في كشف ملابسات الفيروس؟

بملامح غاضبة، قالت وهي تكاد تميَّز من الغيظ:

– هل فهمتَ قولي السابق؟!

تفهّم الطبيب حالها وحديثها، وسكت. ثم قال في زفير ممزوج بحزن:

– استمتعوا معه هذه الدقائق، فربما يحين أجله الساعة.

عجيب هو الموت، استشعار قدومه فقط كفيلٌ بأن يُقوّم ما أنت عليه!

بكوا عليه، بينما هو طريح الفراش يتأوه من شدَّة الوجع. تدري جوانة أنه لا فائدة من نقله إلى المستشفى، لكنها ضعفت أمام إلحاح أمها المستجيرة بها. مضوا به بسرعة مفرطة، وبعد تدخلات رسمية مباشرة وجدت جوانة سريرًا شاغرًا في أحد المستشفيات، جاءها الطبيب وخلفه رئيس القسم ليباشرا بنفسيهما الحالة التابعة للدكتورة جوانة، حاول الأطباء إسعافه بشتى الطرق، مدُّوه بالأجهزة والأدوية التي تبقيه أكبر قدرٍ ممكن على قيد الحياة، لكن الحالة تأبَى الاستجابة، راغبةً في توديع الحياة شيئًا فشيئًا.

امتثل الجميع، واستعدَّ الطبيب لقول جملته المعهودة: البقاء لله. وتأهَّب الأهل لإطلاق صرخة قوية تهتزُّ لأجلها الأعماق، وتُزرف في سبيلها أطنان الدموع، لكن هذا كله لم يحدث، فلا يزال

في العمر بقية؛ فقد عاد النفس يجري مجرى الدم في جسده في عجب من الأطباء. هدأت نفوسهم المرتعبة، إلَّا أعينهم، لم تكُف عن البكاء.

الحال في المستشفى يُبكي الحَجر الأصم، أعداد لا حصر لها من الحالات المشابهة، انتظار وفوضى ومحاولات إنقاذ فاشلة من الموت، صراخ في الممرات المفضية إلى غرف العناية المركَّزة، ومشاجرات مع الأطباء العاجزين عن إسعاف المرضى، وبكاء على فراق الأحبَّة.

سارت جوانة بخطى مرتعشة بين المرضى تتأمَّل صنيع الفيروس بالناس، فرأت امرأة في الأربعين من عمرها تتضرع بحرقة أمام زوجها الراقد أمامها على السرير والدموع تتساقط على خدها، وتقول:

- يا عدرا باركي زوجي، يا عدرا يا مريم لا تتخلي عني، فليس لي سواه في الدنيا.

يحاول الطبيب بكل جهده إسعافه، كاد ينخلع قلب الطبيب الشاب وهو يرى نحيب زوجة المريض خوفًا على فَقده، تتوسَّل إليه أن يفعل شيئًا لزوجها، فيرمقها بنظرات رأفة وعطف، ويُعاود مساعيه البائسة الخادعة، وتُعاود هي الأخرى البكاء والعويل على الرغم من محاولات تهدئتها حينما يرسم علامة الصليب على وجهه بين الحين والحين، وكأنه يبعث لها برسالة أني منكِ وأنتِ مني فاطمئنّي.

ووسط صراع البقاء المشتعل، منحها فرصة جديدة لتحادثه، فاقتربت منه تتأمله مرة ثانية، فبادرها كمن يوصيها:

– هو الموت يا ماجدة، أشعر به يحوطني من كل جانب، يدق باب قلبي، يدعوني للهجرة معه من دون خوف. أنا لا أخاف الموت، بل أنتظره ليخلّصني.

ينظر في عينيها نظرة الوداع الأخير:

– فما يخيفني أني سأفتقدك، لكن ما يريحني أيضًا أني سأنتظرك هناك.

صرخت بانتفاضة أنثى عشرينية، فلا حيلة لديها غير الصراخ والشكوى، فقد هان حالها على نفسها والناس. عاودت الصراخ كطفل حُرم ضرع أمّه، ترجوه أن يكف عن حديثه المؤلم، فتكاد تتمزّق من تخيّل رحيله، وحياتها وحيدة شريدة من دونه، فيبدو أنها عاشت تحت ظله في غُنجٍ طوال حياتها. هرع الأطباء إزاء مناحتها المتلاحقة، يحاولون ويحاولون، ثم يحاولون ويحاولون، لكن من دون رجوع، فقد صعدت الأمانة إلى ربها، وبقي القهر ينصب خيمته على الوجوه الحزينة.

وفي جلبة صراخات الموت والمرض، نصح الطبيب جوانة أن ترجع بوالدها، فلا جدوى من بقائه، فقد نفدت الحيل. أخذت بنُصحه، وعادوا به كما جاءوا. آلام البشر كلها مجتمعة في عينَين تلك الأنثى التي تقف على حافة السرير في انتظار موت أبيها، كم هو قاسٍ جدًّا أن تنتظر موت أبيك كي تصرخ، كي تخبره بأنك تحبه، وأنك ستشتاق لرؤيته، وأنك وددت لو مكثتَ معه مزيدًا من الوقت.

لفظ أنفاسه الأخيرة برضا تامٍّ، وذراعين يتسعان لدنيا جديدة لا تُرى بالعين المجردة. دُفن والد الدكتورة جوانة ودُفنت معه أسراره، ولا أحد يعلم بكاءه هذا أكان سخطًا على ابنه الفارِّ، أم ندمًا على ما فرَّط بحقه؟! لكن ما هو معلوم بالضرورة حال زوجته، رفيقة كفاحه التي سقطت على فراشها مريضة لا تقوى على مواجهة حقيقة رحيله، كمن تتجهّز للحاق به!

(5)

في سـرِّيَّة تامـة اسـتُدعيت الدكتـورة جوانـة بعـد ثلاثـة أيـام مـن وفـاة والدهـا إلى المركـز؛ فقـد عُثر على أول مولـود ذكر يُدعـى زين، لكن الخبر فشـا في أرجـاء مصـر، والتـفَّ الإعلام حـول أهـل المولـود الـذي ذاع صِيتـه في العالـم ليسـتقصي كيـف خـرج الذكـر مـن رحـم الأنثى؟ ولـم تكـن المفاجـأة أن يخـرج مـن أصلاب هـذا الرجـل ذكـرًا، بقـدر مـا كانـت المفاجـأة الـكبرى في إجابتـه عـن سـؤال كيـف حـدث ذلـك؟

أجـاب والـد «الذكـر» قـائلًا والفرحـة تكاد تقفـز مـن عينيـه:

- البركـة كلهـا في علاج مولانـا الشـيخ «الهـادي بأمـر الله».

ثـارت الجمـوع وتكاثـر اللاهفـون على إنجـاب الذكـور -ولي العهـد وحامـل الرايـة- كمـا يقولـون، حـول منزل الشـيخ المنقـذ والعالـم الروحـاني الهـادي بأمـر الله، فأصبـح بيتـه مقصـدًا للنـاس والإعلام، وكانـت الأجهـزة الأمنيـة ثالثتهـم، حيـث حاصـرت قـوات الأمـن منزلـه، وتحوّلـت المنطقـة إلى ثكنـة عسـكرية بالمعنى الحرفي، وأشـيع بين النـاس أن الحكومـة أرسـلت في طلـب الشـيخ أو بالأحرى القبـض عليـه، فراحـوا يهتفـون باسـمه مـن دون خـوف، وينـذرون الأمـن مـن مجـزرة سيروح ضحيتهـا الآلاف إذا اقتربـوا مـن الشـيخ المنقـذ، والعالـم الملهـم -على حـد وصـف محبيـه-.

كان لزامًا في تلك الظروف أن يحاوره من ينال ثقة المتضادين دومًا، الحكومة والشعب، لحل النزاع الذي ربما يؤدي إلى هلاك حتمي. فنالت الدكتورة جوانة تلك الثقة ومعها الدكتور فيكتور، وبالفعل استجاب الشيخ الهادي للقائهما بعد محايلة استمرت لأيام لم يخش فيها تهديدًا من الحكومة أو ترهيبًا من الإعلام، فهو يُدرك أنه متدثِّر بالجموع المحيطة حوله، ويمكنهم أن يقدِّموا أنفسهم قرابينَ له إذا احتاج الأمر إلى ذلك.

حال بيته يوحي بزهده رغم غناه، فقيل: إنه ترك داره الفسيحة واستقر في خلوته المتواضعة اللصيقة بداره ليتضرّع فيها إلى الله وحده دون ضوضاء. وقيل أيضًا: إنه أغنى مشايخ عصره، لكن ماله ينفقه في سبيل الله. وقيل ثالثًا: إن الهبات تتنزّل عليه من السماء في خلوته تلك. وقيل رابعًا: إنه لا يقابل إلَّا من ذكرته السماء بالاسم.

لم تقرأ جوانة في أعين الناس المحيطة بمنزل الشيخ الهادي ذرة شك في قدرته الفائقة، وكذلك الدكتور فيكتور الذي سلبت اللحظة لُبَّه. ينظرون بغرابة إلى الناس فإذا هم صامتون، يقرأون أورادهم القرآنية التي حددها لهم أتباع الشيخ الذين ينظمون حركة المرور، وينتظرون ذكر أسمائهم في السماء ليُشفَى المريض المسن ويُرزق الرجال الذكور.

طرح الدكتور فيكتور على الشيخ السؤال الأول البديهي:

- ماذا حدث؟!

أجاب بهدوء وكأنه يستدعي وحيًا يتنزل عليه من السماء:

– رأيت فيما يرى النائم المهموم بأمَّته وقضايا بلاده الإمام عليَّ بن أبي طالب يعطيني وصفةً من الجنة، ويقول لي: يا هادي، على يدِك يُشفى المريض العجوز وتُنجب الأنثى ولدًا. ومسح على جبهتي وقال: إياك وكشف سرِّ الوصفة فتهلك أنت ومن معك من أمَّتك.

كانت الإجابة غير مقنعة للدكتور فيكتور بعدما قامت جوانة بترجمة الحديث.

فسألته جوانة سؤالًا مصريًّا خالصًا:

– ومن أين عرفت أنه الإمام علي؟!

كان يتوقع السؤال، فردَّ بذات الهدوء المثير:

– يا ابنتي هذه أسرار ربانية نورانية لا يُكشف عنها لأحد، وكما أنا لست خبيرًا في علمك، أنتِ أيضًا لستِ خبيرة في علمي، لكن كلانا يحمل همَّ الأمة.

داعب لحيته البيضاء الكثَّة، ثم قال:

– أخبروني عن العلم، ماذا فعل إزاء هذه الكارثة؟!

لم ينطقا. فعاود قائلًا:

– حين أُجهز الكثير من الوصفات سيدهشك إنجاب الذكور وشفاء المرضى العجائز الذين يموتون كل يوم بالمئات وسط عجز علمكم ومعاملكم واختراعاتكم عن إيقاف زحفه.

نازعتها نفسها ما بين السؤال أو السكوت، فاختارت السكوت مؤقتًا لأن وصفته نجحت، وربما تَلقَى المزيد من النجاح. لكن الدكتور فيكتور اصطاد من حديثه كلامًا، وسأله بقدر ما تسعفه محصلته العربية:

- هذا هراء، فإن كنت صادقًا أرنا مكونات الوصفة لنختبر مدى فاعليَّتها.

نظر الشيخ إليه نظرة ثاقبة وقال:

- وهل يمكن اختبار الأسرار النورانية ونفحات السماء يا دكتور؟!

ثم وجَّه حديثه للدكتورة جوانة:

- ترجمي للأجنبي كلامي، وأفهميه أن السماء مكتظة بالحلول يا دكتورة.

لم تنطق جوانة، بينما حاول الدكتور فيكتور أن يجادله بالتي هي أحسن، وحين لم يجد أملًا ولا طريقةً، هدَّده بالاعتقال والاستجواب الأمني كي يُقر بما في جُعبته، لكن الشيخ لم يَخَفْ، ولم يهتزَّ، ولم يضعُفْ بأسُه، فكان متدثرًا بالناس، ومن تدثَّر بالناس لا يخاف ولا يهتزُّ ولا يضعفُ. وعاد يقول في ثقة متناهية:

-أنا لا أحب الحديث مع الكفار والملاحدة؛ لأنهم لا يؤمنون بالله من الأساس، فكيف يصدِّقون أخبار السماء وعطاياها التي لا تنفد أبدًا؟!

وهمَّ قائمًا بطريقة مفاجئة مقاطعًا جوانة حين همَّت أن تقول شيئًا، وقال:

-انتهى الحوار، وعندما أنتهي سأرسل إليكما أولاً لأُطلعكم على ما توصلت إليه.

خرجا من بيته وكلاهما في شك منه، لكن الواقع يصدِّقه، وكذلك الناس التي تحميه خوفًا من القبض عليه في أي لحظة. مضى يومان ولا جديد يُذكر، الباحثون في عملهم، والناس في انتظار الفرج من عند الشيخ الهادي بأمر الله، بينما الأفكار كانت تشغل بال دكتور فيكتور، فسأل جوانة:

- هل فحصتي حالة المولود جيدًا؟ هل رأيتِ أعضاءه ا لتنا سلية ؟

- نعم يا دكتور، تأكدت بنفسي.

- وما هو الشيء الذي تجرَّعه مُنجب الذَّكر هذا؟ هل سائل أم أعشاب أم ماذا؟

- للأسف لم يُجب عن أي سؤال سوى أنه قال: إنها تعليمات مولانا الشيخ.

أخيرًا سمح الشيخ بدخول منزله لكل مريض تجاوز الستين للرقية والشفاء، ونظرًا للحشود الآتية من كل مكان وافترشت أمام بيت الشيخ، نظَّمت القوات الأمنية طريقة الدخول والخروج، كأنما يكون عرس انتخابي يُدلي الناس بأصواتهم! أيام تمرُّ ولا أحد يفهم ما يجري، جميع المرضى الذين دخلوا إلى الشيخ تم شفاؤهم بالفعل وتحسَّنت صحتهم، ورصدت المواقع الإخبارية أن الكثير

من الأغنياء والأثرياء توافدوا على الشيخ وأرسل بعضهم لأخذ الوصفة، وسُمِّيت بوصفة الإمام علي، وكل من يخرج من عند الشيخ يهتف بعلوِّ صوته:

– الله الله يا أهل الله، فيكم نرجو ومنكم نشفى.

جُن جنون الباحثين، لم يصدق بعضهم تلك الخرافة، والبعض الآخر سلَّم بالأمر الواقع، لكن الدكتور فيكتور لم يستسلم، وأرسل إلى الشيخ يخبره بأنه يريد مقابلته، فرفض معللًا انهماكه في شفاء المرضى، وأبلغه أنه سيكون متاحًا لهم بعد ثلاثة أيام بالضبط. تفتق ذهن فيكتور إلى أن هذا الشيخ يدبر شيئًا ما خفيًّا، فلا العلم يقول ما يقول، ولا المنطق يصدق ما يصدقه العامة، هناك طرف مستفيد من كل هذا العبث، ثم سأل جوانة:

– إذا كان حديثُه صحيحًا، فلماذا لم يساعد في إنجاب الكثير من الذكور؟ ولماذا توقف عند هذا الرجل تحديدًا؟! ثم لماذا لم تقِلَّ حتى الآن حالات الوفاة على الرغم مما يتداوله المرضى بشأن شفائهم على يديه؟

– كل هذا لا يهم ولا يفيد بشيء، المولود ذكر يا دكتور.

– لا، ليس ذكرًا.

– ماذا تعني؟

في سرعة بالغة طلب دكتور فيكتور من الضابط المكلَّف بحراسته، بأنه اكتشف مصيبة، وطلب منه إحضار الطفل وأبيه بالقوة. نفَّذت الفرقة الأمنية واقتحمت بيت والد الطفل

زين وسط هياج الناس وصراخهم، وظل يندب ويصرخ طوال الطريق ويقول:

- ستحل عليكم لعنة الشيخ الهادي.

وكررها مرارًا.

وقف الدكتور فيكتور ومعه جوانة وبعض الجرّاحين المتخصصين في مجال العمليات الجراحية الدقيقة، وقاموا بجميع الفحوصات اللازمة على الطفل زين، وكانت المفاجأة الطامَّة، أن الطفل زين أنثى، وأجروا لها عملية استئصال لأعضائها التناسلية واستُبدلت بأعضاء تناسلية ذكورية. انهار الجميع من هول الصدمة، وتوجَّهت الأنظار إلى الرجل، الذي لم يتمالك نفسَه من الخوف، وخرَّ راكعًا وأناب بالحقيقة كاملة؛ أنه اختطف هذه الطفلة وفعل بها ما فعل لأجل حفنة أموال، ودبّر هذه المصيبة هو الشيخ الهادي وبعض الأطباء.

اعترف بكل التفاصيل عن المستشفى والطبيب، أما الشيخ الهادي فالكل يعرف طريقه. فورًا تحركت القوات الأمنية إلى عنوان المستشفى ومنزل الشيخ، فلم تجدهما، فقد اختفيا وكل أثر لهما بعدما جنيا ثروة مالية طائلة. و على الرغم من ذلك كله، لم يصدق الكثير من الناس الحقيقة، وظنّوا أنها مكيدة حكومية لقتل آخر أمل في إنجاب ولي العهد. فما زال الناس يصدقون الدجالين على الرغم من الوعود الواهية والتجارب المريرة.

في أوقات الشدائد الكبرى يُصدّق الناس من يطمئنهم ولو كان كاذبًا، ويصمُّوا آذانهم عمن يحذّرهم ولو كان صادقًا.

ما هي إلَّا أيام قلائل حتى بلغت حالة الاستنفار الأمني والطبي مداها، بعدما كشفت آخر التقارير الإحصائية عن كارثة جديدة، وهي أن حالات الوفاة من الذكور ارتفعت من دون سبب ملحوظ، وتحوَّر الفيروس الجيني المجهول وبات فتاكًا مبينًا. لحظات تمرُّ عقب لحظاتٍ أمر من دون أي جديد، سوى ما قالته الدكتورة جوانة في بيان شديد الصراحة والحزن والقلق على مستقبل البلد:

- «حافظوا على ذكوركم، فقد انقطعت الآمال في إنجاب غيرهم».

في صباح اليوم التالي، أعلنت دول عربية أنها ضُربت بنفس الفيروس المجهول الذي دمَّر مصر وشتَّت أهلها، وتوالت الدول العربية تباعًا تشكو من نفس الأعراض، وبوتيرة أسرع من سابقتها في مصر، فغالى الفيروس في جُرمه، وتخلَّل بخفَّة مُرعبة إلى القلوب فأصابها بالقهر والخنوع، كأنما يكون جيش متمرِّس على اقتحام أماكن العدو بتمكُّن. فلم يحفل بالصراخ المكرر، ولا البكاء المكرر، ولا الاستنجاد المكرر، كمن سمعه قبلًا فأَلِف أنينَه، وراح ينحر في الجميع بلا أناة ولا رأفة، يضرب بذات القوة المنهجة كأنما يسوقهم إلى الهاوية وهم ينظرون.

والعالم يتساءل: ماذا يحدث في المنطقة العربية؟!

لا إجابة حاضرة الآن، فقط الكل ينتظر من سينجو!

دار الإعلام والناس يطرحون الأسئلة وأجوبتها، فمن المستفيد من هذا كله؟! المشاهد كلها تُعاد كما لو أنه فيلم سينمائيّ قديم. جلس الناس في البيوت خوفًا، وامتلأت المستشفيات بالمرضى،

والمطارات بالمهاجرين، والمساجد والكنائس بالمصلين يدعون رب البريَّة لينقذهم من الهلاك الوشيك.

وفي ظل الانفلات التام الذي عمَّ المنطقة العربية، احتل أطفال الشوارع ومَن لا مأوى لهم جميعَ البيوت وضواحيها، وباتت لهم الكلمة العليا، فتسلّلوا إلى القصور والفيلات والعمارات الشاهقة التي تركها أصحابها خالية إمَّا هربًا وإمَّا موتًا، واستمتعوا بكل هذا النعيم وحدهم، ينامون على الأسِرَّة الملساء كما كان الأغنياء ينامون، ويلبسون الحرير كما كانوا يلبسون، ويدَّثرون بالمعاطف واللُّحُف الغالية كما كانوا يُنعّمون، ويستقلون السيارات الفارهة كما يشاؤون، ويَسبحون في حمَّامات السباحة يتبوَّلون ويتبرَّزون من دون ملامة أو تعنيف.

وما إن سكنت نفوسهم المتعطِّشة للخراب، وارتوت أعينهم بمناظر الثراء والعيش الترف، عادوا لِما ألفوه من طبائع مغروسة بباطنهم، فقاموا بتحطيم ما أمكنهم، وحرق ما استطاعوا إليه سبيلًا، وجلسوا مستمتعين بمشاهدة هذه الفوضى العارمة التي أحدثوها عن عمد وأعينهم تفيض بالبسمة والافتخار. ثم تركوا كل شيء خلفهم وعادوا إلى من حيث جاءوا، الشارع، يتأمَّلون الموتى والصرعى والبكَّائين في الطرقات خوفًا من الموت. أما هم فلا يبكون أبدًا، فقط يندهشون، ثم يضحكون، ثم يشمتون، ثم لا يكترثون بهم، فقد ذاقوا قديمًا ما يذوقه الناس الآن!

فما بال إذا قيل لميتٍ سنقطع يديك، هل يشعر؟! هل يسمع القائلَ أصلًا؟! بالطبع لا، كذلك هو الأمر.

بدا واضحًا أن المنطقة العربية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتتهيأ لأعظم غزوٍ في تاريخ البشرية، غزو مقنن بفرضية الواقع الجديد، كما لو يكون هو الأمل الوحيد للنجاة، لكنهم في الحقيقة كمن استعان بالمتآمر على فرض السلام بين الناس! فصارت الحياة على نحوٍ غم نفوسهم، كأن الشمس أفلت، والنجوم تضاءلت، والجبال تلاشت، والبحار يبست، والوحوش تجمّعت للخلاص من المنطقة بأكملها، وما ذكّى هذا الشعور المتغلغل فيهم هو أن بعض المواقع الأجنبية تهكّمت على ما يحصل في العالم العربي، قائلة:

- «قريبًا سيغزو رجالنا المنطقة العربية لتجديد النسل»!

فقد كشف الفيروس المجهول عن نفسه بكل حماقة، واخترق أجساد الذكور من العرب يحصد أرواحهم حصدًا من دون خجل أو مروءة، فما خلى بيت إلّا وخيَّم فيه الذعر والرعب والحسرة من واقع لا يُبقي ولا يَذر. الكل يفرُّ من الكل، ولم تنفع وقتئذ الأبراج الشاهقة وناطحات السحاب العملاقة، ولا أكبر مسجد ولا أضخم كنيسة، ولا الصراع الأزلي على مَن يقود العالم العربي، ولا المصالحات والمواءمات الخفية، ولا المعايرة بالفقر أو التباهي بالغنى، جميعهم في تلك اللحظة متساوٍ، الفقير المُعدَم مع الغني المُترَف، كلهم يتجرّعون من نفس الكأس العلقم، لا مردَّ عن ذلك.

حُظِر العرب في مستنقعهم وسط إشفاق دولي ومساعدات لا تُنجي، فما يحدث أماط اللثام عن صراع مصالح واستعراض قوي يُدبَّر في الخفاء، وأضحى واضحًا من سيدفع الثمن، فلا يُعقل أبدًا

أن يكـون الـفيروس دقيقًـا إلى هـذا الحـد، يصيـب مَـن يشـاء ويُعـرض عمَّـن يشـاء!

فما كان بعيدًا بالأمس، بات اليوم واقعًا مريرًا لا فِكاك منه.

(6)

توابعُ مدفوعة بسيف المكيدة، بواعِث النفس الهشَّة، اضطرابات الفؤاد المهموم، حوكمة الهوى، اكتظاظ النفس بالشكوى، لطمة الواقع الممتزج بالاستفاقة حين الغرق، ثم في النهاية، هدوء خانع يؤوي بالنفس قبل شهقة الموت الأخيرة.

وهذا ما حدث!

«عزيزتي جوانة، الآن أُجيبك على السؤال الذي حيَّر عقلك منذ تحوَّر الفيروس المجهول، حينما سألتِ: لماذا لم تُصب بالفيروس كما أصيب الرجال؟ والآن أُجيبك بمنتهى الصدق والراحة الغامرة في النفس: ربما لأني لستُ عربيًّا. أعلم أنها إجابة تفتح مصيدة شكوك كبرى عندكِ، فغدًا تعلمين أني لم أكن خائنًا وكنت مخلصًا أمينًا، لكن الأزمة كانت أكبر من احتمالاتنا. أتمنَّى لكِ ولفريقكم النبيل كل التوفيق. ونصيحتي إليكم، عودوا إلى دياركم واستمتعوا مع ذويكم من الرجال لحظاتهم الأخيرة في حياتكم، فالقادم مخيف. وداعًا مؤقتًا، فإذ ربما نلتقي لقاءً كان مؤجّلًا».

ترك الدكتور فيكتور هذه الرسالة المقتضبة على مكتب جوانة وعاد إلى دياره على متن طائرة خاصَّة، قرأتها جوانة في ألمٍ أبكى

قلبها، وخلية شكوك تحوَّلت إلى حقيقة، لكن لا طائل من التفكير الآن، فقد مات جُلُّ الرجال.

رجعت جوانة إلى بيتها تنتظر كل يومٍ لحظةَ وداع ابنها، تواسيه برثاء يُدمي القلب ويُوهن النفس، حتى أختيه تبكيان بحُرقة على ما فرَّطتا في حبه وحقه، وإن لم تفعلا، وعلى كل لحظة شجار وقعت بينهما، وإن كانتا مُحِقَّتين.

ليالٍ تمضي وجوانة منتظرة، تتأهب كل دقيقة لصرخة قوية تهز أعماقها بقوة، تنظر إلى ابنها الممدَّد على الفراش من دون حركة، يبادلها نظرات بكاء وتبادله نظرات مطمئنة وفي جوفها يسكن الكمد والهم. وعلى غرار المتوقَّع، ومن دون فجأة، تراكمت الأعراض كلها على وجهه وجسده في ساعة إلَّا ربع، الأعراض الفيروسية الجينية المجهولة مجتمعة في ذلك الصبي الذي عاش مدلّلًا طيلة عمره، لكن من دون ألم أو وجع أو حتى صراخ يعلو في جنبات البيت، وتلك كانت الغرابة التي ارتسمت على وجه جوانة. وما هي إلَّا لحظات حتى مات موتةً هيِّنة سهلة، كأنَّها مكافأة القدر لهذه الباحثة التي حملت على عاتقها همَّ البلد منذ الوهلة الأولى، ولم تطلب حينها جزاءً ولا شكورًا.

بيديها دفنت ابنها كما دفنت أباها قبلًا، وعلى مقلتيها دموع الفراق.

يمضي اليوم ثم الأسبوع ثم الشهر، والرجال يُدفنون على أيدي النساء! تزايدت الوتيرة وتفاقمت الأمور سوءًا على سوء، وأعلن المركز القومي للإحصاء عن خلوٍّ بعض القرى والمدن من

الرجال في مصر، كما أعلنت بعض الدول العربية أنها ودَّعت آخر رجالها بعدما تمكَّن الفيروس وعجّت الشوارع بجثامين الرجال.

على الجانب الآخر من الكوكب دعت الدول الكبرى القادةَ العرب لتقبُّل الوضع الراهن، والتعامل مع المعطيات الجديدة بصدر رحب، وسرعة تمكين المرأة وإعطائها زمام القيادة، كما تدخَّلت بعض هذه الدول بحكم السيادة في توجيه بعض السيدات اللواتي حكمنَ بلادهن بالفعل بعد فناء الرجل، وكان السبب الظاهري لهذا التدخل لكيلا تغرق البلاد في المجاعة أو الفوضى، وبدأت تعطي نصائحها لكافة الدول العربية في ثوب مساعدات فكرية واقتصادية وسياسية.

فمن ذا الذي لا يتمنَّى بسط نفوذه على المنطقة العربية والشرق الأوسط بعد هلاك الرجال؟!

وبالفعل مُكنت النساء، وكانت أولى الدول العربية التي حكمت فيها النساء هي منطقة الخليج، فلم تُعقد انتخابات ولا حتى ترشيحات من بين مرشحات أخريات، جاء التعيين واضحًا لا لبس فيه، كونهن باقيات على العهد الملكي القديم، وأعلنت عن حزمة قرارات واجبة التنفيذ في بيانها الأول:

«أيتها النساء، مصابنا شديد والتحدي كبير، لكننا قادرات عليه، وعلينا أن نثبت للعالم أننا صالحات للقيادة، وأننا خير سلفٍ لخير خلف، سنعمل من الآن على راحة نسائنا، وسنطرح حلولًا سيكون فيها الخير الوفير، لكن ما هو علينا الآن، أن نحيا في سلام كأن شيئًا لم يكن، ونستمتع بحياتنا ريثما يقضي الله أمرًا كان مفعولًا».

بعد هذا الخطاب توالت المفاجآت العربية، وأعلنت الدول تباعًا خلوَّها من الجنس الذكوري الذي عاث في الأرض فسادًا، -كما قالت بعض المتمرِّدات في العالم العربي- لينتهي بذلك عصر الرجال العرب إلى الأبد.

وفي مصر كانت الدكتورة جوانة على رأس المرشحات لقيادة البلاد، حيث دعَّمتها بقوة إحدى الحركات النسوية المتحكِّمة في المشهد برمَّته وسط اعتراضات أخرى بإفساح المجال لمرشحات أخريات، لكن الحركة أصدرت بيانًا عاجلًا قالت فيه: «إن البلاد في مرحلة انتقالية صعبة، والمناخ العام غير مؤهل لأي انتخابات حاليًا، لذا علينا أن نقف خلف الدكتورة جوانة التي حملت همَّ البلاد على عاتقها طيلة شهور مضت، وحينما تستقر البلاد نمارس حقوقنا الديمقراطية كاملة».

وبالفعل فازت الدكتورة جوانة بالتزكية وأصبحت رئيسة البلاد، وخرجت في أول بيان للجمهور النسائي قالت فيه:

«تحملن معي تلك الفترة لنعيد ترتيب أولوياتنا، ومن لديها الخبرة والكفاءة للعمل في المجال العام فلتتقدم إلينا فورًا، فقد كلفت الحكومة بسرعة تسهيل الحياة على المواطنات، وإعادة تدوير جميع القطاعات بالدولة، فلا بد أن ننتج دواءنا وغذاءنا وكساءنا حتى لا نكون عالةً على أحد».

انتفضت النساء فرحًا من هذا الخطاب المؤثر، الجامع المانع، والموجز القصير، والذي صُنِّف بأنه أقل خطاب رئاسي مرَّ في تاريخ البلاد يحمل في ثناياه معاني كثيرةً وكلماتٍ قليلة. وصِحن غير

عابئات بانقراض الرجال، يتطلعن بالآمال العريضة في توجهات الرئيسة الجديدة.

انتقلت جوانة وأسرتها من حالة الطبقة المتوسطة إلى الثراء الفاحش، أعلى سلطة في مصر، البذخ دبَّ في حياتهم، قصر رئاسي قلَّما تجد نظيره، سيارات فارهة، طائرات خاصَّة، حارسات في كل مكان، وكل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، حتى إنهن كدن ينسين ما مضى من كثرة الانبهار الواقع بهن. وفي اليوم الثاني لرئاسة حكم البلاد، عينت الباحثة خديجة -صديقتها- وزيرة البحث العلمي، لتشاركها الحكم، وأيضًا لأنها كانت إحدى الداعمات القويات المؤثرات في بداية الأزمة، وراحت توزع المناصب بمساعدة خديجة تارة بالكفاءة وأخرى بالمعارف.

أسابيع وعجلة الإنتاج متوقفة تمامًا من دون سبب ملموس، أزمات، ركود، فوضى، حتى إن الإعلاميات المعارضات للسلطة بدأن ينتقدن الوضع الراهن، وينتقدن أيضًا فيما اعتبرنه بالإملاءات الخارجية للرئاسة، فجاء الرد الحكومي في بيان رسمي يقول بملء الفم: «إن هناك أصابع خفية تفتعل الأزمات لعرقلة النمو، ولن نسمح بذلك».

كان الاضطراب العام واضحًا في كثير من الدول العربية، ولكن الأزمة كلها لم تكمن فقط في عجز القياديات والزعيمات العربيات عن إدارة بلادهن، بل ثمّة أمور يُعاد ترتيبها في الخفاء لم يُكشف عنها بعد؛ إذ خرجت صيحات عربية بكل جرأة سُمع صوتها في الآفاق، يطالبن الحكومات باستيراد رجال من الخارج لينقذوا النساء من الفناء!

لم تكن مجرد فكرة عابرة قِيلت، بل بدا جليًّا أنه إلهاء محكَم للاستيلاء التام!

أصبح مشروع استيراد الرجال من الخارج قائمًا بالفعل، وبدأ يُطرح على المنصات المختلفة في داخل البلاد العربية وخارجها، رغم ظهور الكثير من الأصوات المعارضة التي نادت بأن ما سيحدث ذريعة للاحتلال، لكنها لم تكن مسموعة وسط جلبة العاصفة الكلامية، وسرعان ما اختفى أثرها في ظروف غامضة!

مالت النفوس إلى استيراد الرجال، واستسلمن تمامًا للانفتاح الجديد بكل انصياع وطواعية، فتأججت مشاعر النسوة بصورة الرجل الغربي الفاتن من جديد، واشتعل في نفوسهن ما كان خامدًا.

انصرفت كل دولة تغرد وحيدة لتلبي مطالبها، وتعرض مزاياها وعروضَها وتسهيلاتها لاقتناء الرجل، وكلٌ على حسب قدرتها المادية في التفاوض، فمن الدول من تحدّثت مع الأمريكان، ومنها مع الروس، ومنها مع أوروبا. فالدول الثرية وفّرت لهم كل سبل الحياة، المرتب والعيش المرفَّه والتمتع بالحياة كيفما شاء ورغب، أما الدول الفقيرة والمتوسطة، فلم توفر سوى السكن فقط.

وجدت الدول المصدِّرة للرجال أن هذه فرصة سانحة للتمكين، فبدأوا يغالون في مهور رجالهم، ويفرضون مطالبهم المعيشية كاملة، بل إنهم رفضوا أن يبرموا أي اتفاق إلَّا بالموافقة على كل شروطهم من دون أي تفريط أو تنازل. في حين كانت هناك دول عربية وإفريقية لم تقدر على بورصة المفاوضات الدائرة كل يوم، نظرًا لمواردها المحدودة، فهي بالكاد تعيش على الكفاف، فقد أنهك استبداد الرجال بالحكم هذه البلدان، وكذلك قضى

الفيروس على معظم مقدراتها، وأيضًا تهميش دور المرأة في سالف العهد البائد من عدم توليها القيادة، كل هذه العوامل قضت على مقدرات بعض الدول، فأصبحت عالة وفقيرة، وجاهزة للاستعمار بمنتهى السلاسة، لذا؛ تركت حرية استيراد الرجل الغربي على حسب القدرة المادية للمرأة، كل امرأة بحسب جيبها، مما اضطرت بعض هذه الحكومات ببعث رسائل تعاطف لدول العالم الأول بجلب عاطليها ومشرَّديها ولاجئيها إليها لتجديد النسل، ولهم حق تمليك الأماكن التي يسكنونها فقط إن أرادوا.

ولم تكن الدول العربية صاحبة النصيب فقط من انقراض الرجال! بل الدول الإفريقية من دون العربية أيضًا أصابها ما أصاب العرب، فمؤخرًا محا الفيروس فيها معالم الرجال، وطعن طعنته الغادرة، وسفك سفكته القاطعة حتى فُرغت تمامًا من أي رجل، ومُكِّنت النساء من قيادة بلادهن وسط وعود لإنهاء الانقسامات والصراعات العصبية والقبلية، وأصبحت البلاد فارغةً من أي صراع لأسابيع، إلى أن دبَّ الخلاف وظهرت المطامع والأجندات والمواءمات الخفية، فعادت المنطقة الإفريقية لِمَا كانت عليه سلفًا في عهد الرجال، وكأن فيروسًا لم يكن. ومنذ حينها، وكل يوم يُذاع عن انقلاب جديد في دولة إفريقية جديدة.

فيا للعجب، حتى النساء ينقلبن على الحكم ويلوِّحن بالفوضى!

(7)

سيقت لهن الفرص، كأن الأرض تأهَّبت لإخراج أثقالها وأسرارها من باطنها حفاوةً بهن. والسماء تهيأت لتُسقط عليهن المطر الغزير من خزائنها مؤازرة وحبًّا.

عُقد أول اجتماع عربي بين القائدات والزعيمات العرب لبحث القضايا المشتركة، وتعميق العلاقات الاستراتيجية والاقتصادية والتاريخية بين البلاد. كان التفاؤل يعمُّ القاعة، والقبلات والأحضان والضحكات عنوان الاجتماع العربي الأنثوي الأول، واتفقن على خريطة عامَّة للنهوض العربي وبث الأمل من جديد في الوجدان الجمعي للشعوب، وكانت أهم النقاط التي وقَّعن عليها، هي:

* الأمة العربية أمة واحدة، إذا اشتكى منها عضو تداعت لها بقية الأعضاء بالحُمى والسهر.

* الاقتصاد العربي اقتصاد واحد.

* إلغاء الحدود والتخوم الجغرافية التي وضعها المستعمرون في سالف العصر الماضي بين البلاد العربية، وجعلها بلدًا واحدًا يتسع للجميع. وأصبح بإمكان الفتاة العربية أن تفطر في بلدٍ عربية ثم تسافر لتحتسي القهوة في بلدٍ أخرى من دون أية عراقيل.

* وضع استراتيجية عالمية كبرى في الصحة والتعليم للنهوض بالمرأة العربية.

* أي اعتداء على أي دولة عربية يعتبر اعتداءً مباشرًا على هيبة وكرامة هذا التحالف، وفي هذه الحالة يكون بمثابة دق ناقوس الخطر وإعلان حالة الحرب ضد الدولة المعتدية.

* هذا الاجتماع فاتح ذراعيه لأي دولة إفريقية تريد الانضمام إلى عالمنا العربي المفدَّى.

* إيقاف فكرة مشروع استيراد الرجال مؤقتًا لحين وضع خطة متكاملة تتيح لنا الاختيار بتأنٍّ وتريُّث وحنكة، وذلك بعد عمل كافة التحاليل والإشاعات اللازمة تجنبًا لأي مرض. كما تساعد الدول الغنية الدول غير القادرة على سداد فاتورة تكلفة استيراد الرجال.

عبّرت هذه القرارات عن فهم عميق لمتطلبات المرحلة القادمة التي تمر بها الأمة العربية، وانتهى الاجتماع، ووقَّعت عليه الدول الأعضاء، لكن بعضهن كانت عندهن بعض التخوّفات، كالرئيسة جوانة التي قالت حول فكرة مشروع استيراد الرجال من الخارج:

- استيراد الرجال يعد بمثابة احتلال إلى الأبد.

فردَّدت إحدى الرئيسات قائلة:

- وإن لم نفعل سنواجه نفس مصير الرجال، الانقراض، وستُحتل المنطقة يومًا ما.

سكتن. ثم بادرت خديجة، وأنشأت تقول:

- إذن، نتزوجهم ولا نمكنهم.

لاقت الفكرة إعجاب الحاضرات، سواء الرئيسات أو الوزيرات.

وأضافت خديجة:

– وحين ننجب الذكور والإناث نخلعهم، وبذلك تدب جذورنا في الأرض من جديد.

صفّق الحضور على فكرة خديجة، بينما نظرت جوانة إليها في غرابة ودهشة من اقتراحها، وقالت موجهةً الحديث لهن:

– جميعنا تناسينا أننا أمام مؤامرة كبرى حيكت بالبلاد، إنني أتعجَّب من قولكن، ومن تعاملكن مع الأزمة وكأننا فئران تجارب.

ثم أعادت النظر إلى خديجة، وسألتها:

– هل تذكرين يا خديجة من صاحب كلمة «فئران تجارب»؟

أجابت خديجة:

– نعم يا فخامة الرئيسة، أذكر، لكن دعيني أسألك أمام الحضور: ما الحل؟

سكتت جوانة، وهي غير مستوعبة ما الذي ترمي إليه خديجة!

من وضعية السكوت المتأمَّل لِما يدور، تكلَّمت إحدى الملكات وأثنت على عقل خديجة النيِّر، وقدرتها على ابتكار الحلول، ثم مدحت عقولهن جميعهن، وعلى مدى استيعاب الاختلافات في غرفة واحدة بلا أي تعصب أو أنانية، وقالت وكلهن ينصت إليها:

– نحن متفقون من أول الاجتماع، وحتى الاعتراضات تناقش بهدوء وتُحل. فكيف لم يتفق الرجال بسهولة مثلما اتفقنا؟ غرباء هم الرجال فعلًا!

فردَّت أخرى، وقالت:

- الرجال عادة أصحاب مصطلحات عنترية ومغامرات فارغة، أما النساء فيعرفن من أين تؤكل الكتف.

ضحكن كثيرًا، وشرعن يستجلبن من بقايا ذكرياتهن مع الرجال الكثير من المواقف، فتقول إحداهن نكتة فيضحكن، وتروي أخرى قصة فيضحكن، وتعلّق أخرى فيضحكن، وتسخر أخرى فيضحكن، وانصرفت الليلة الأولى هكذا، بين الذم والمدح.

لم يمر سوى سواد أول ليلة من الثلاث ليالي المعلن عنها لهذا الاتفاق نادر الحدوث حتى بدأن في الردح العلني على الملأ، تارة بين الإعلاميات اللواتي وجدنها فرصة لإطلاق ما في ضمائرهن من غل وحقد، وتارة ثانية بين الوزيرات وبعضهن بعدما أوعزن لأعلام بلادهن بذلك؛ وكان السبب حينما سخرت إحدى الوزيرات من طريقة أكل إحدى رئيسات الدول الفقيرة، فردَّت عليها تستهزئ بجهلها ونعرتها الكاذبة وأنها لولا أموالها ما كان سيكون لهم أي تواجد على الخريطة، فتدخلت ثالثة وتضامنت مع الأخيرة، وانضمت رابعة للأولى وتهكمت من لباسها وطريقتها المتبجّحة، وهاج ماج الكل في الكل، وانقلب المجلس إلى هجاء وجدال وسب ولعن وتكوين تحالفات جديدة، وفي باكر اليوم الثاني للاجتماع الأنثوي الأول، أُعلنَّ تعليق كافة الاتفاقيات التي أُبرمت أمس، وكذلك قطع العلاقات لحين أن تهدأ النفوس.

كانت الأعباء الاقتصادية كبيرة على الرئيسة جوانة، نظرًا لقلة الخبرات ونقص الموارد والمطالبات الدائمة من الدول الكبرى بتسديد فواتير الديون المستحقة، فاستغلت الدول الدائنة

التفتُّت العربي المعلن، وبادرت بالضغط على الدول المدينة بضرورة سدِّ الديون في التوِّ واللحظة. وكانت مصر من الدول المطالَبة بتسديد فواتير الديون كاملة ومن دون جدولة.

أيقنت جوانة أنه ضغط وتوجيه أكثر من كونه مطالبة. فهي لا تريد الانسياق الكامل للدول الطامعة، إي نعم هي مضطرة للرضوخ بعض الوقت، لكنها ليست مُجبَرة على الرضوخ طوال الوقت، ففي قرارة نفسها هو رضوخ مؤقت باسم المصلحة المؤقتة لحين أن تتجلَّى لهن المؤامرة الكبرى كما تجلَّت لها، ومن ثَم تعود الوحدة العربية كما كانت عليه قبل أسبوع.

بدأت جوانة في استمالة الدول الكبرى، خاصَّة بعد مناشدات النساء ولجاجتهن باستيراد الرجال كما تفعل بعض الدول العربية، حيث اتفقت إحدى الدول مع أوروبا بفتح جسور للتواصل وإعادة تبادل العلاقات الكاملة، والاتفاق على استيراد أول مائة ألف رجل للتجربة المبدئية، وحين تنجح التجربة سيتم المزيد من التعاقدات. وراحت بقية الدول التي تمتلك وفرةً من المال بالتعاقد مع الرجال لإتمام عملية التخصيب بنجاح. ولكن هذه الأخبار شكَّلت حياةً مأساوية جدًّا للدول الفقيرة، وأحدثت في داخل المجتمع اضطرابًا واضحًا وفتنة عُظمى؛ كون أنهن غير قادرات على استيراد الرجال، وثانيًا، أن الدول الأجنبيَّة غالت في تصدير رجالها.

كانت جوانة حائرة في أمرها، لا تعلم أي المسالك تسلك، فكل يومٍ اضطرابات في كل مكان، وتظاهرات يومية، وانتقادات واسعة في الإعلام، علاوةً على أن كل خطوة تخطوها يكيلون لها الاتهامات

كيلًا حتى عجزت عن التفكير، فسألت خديجة عن الخروج الآمن مما يحدث، فأجابتها:

-القبضة الأمنيَّة الحديديَّة على الشارع والإعلام حتى يمكننا السيطرة على الوضع الراهِن، والعبور الآمن من هذا النفق المظلم الذي يُهدِّد أمننا القومي.

تعجّبت جوانة، ثم سألتها ثانية:

- وهل هذا حلٌّ ناجز وعادل؟!

أجابت خديجة باستفاضة:

- تركنا الإعلام لكل من تُسوِّل لها نفسها أنها صاحبة فكرٍ وقضية، وتركنا الشارع لكل من تريد التعبير عن رأيها، وتركنا المجال الاجتماعي والاقتصادي لحِفنَة من الجماعات والأحزاب التي تحوَّلت لمافيا احتكارية. فهل تحسّن الوضع؟ لا، بل زاد تعقيدًا وهرجًا ومرجًا.

ابتلعت ريقها، ثم أضافت:

- سيادة الرئيسة، لا بد من وضع كل هذه الأمور في نطاق تشريعات وقوانين محددة، ومن يخرج عنها يوضع في السجن بلا أي رحمة أو شفقة على حاله. فلم تتجرَّأ أي وسيلة إعلامية عربية على هدم الرموز والقادة كما تفعل إعلاميات بلادنا، وتظاهرات بلادنا، وتخزُّبات وتجمعات بلادنا. كفى طبطبةً، فالعصا لمن عصا وتجبَّر.

تنهَّدت جوانة طويلًا، ثم أومأت برأسها في إشارة توحي عن قِلة الحيلة.

قطعَ حوارَهما مكالمةٌ دولية عاجلة، كانت الباحثة وزميلتها السابقة في المنحة، الدكتورة ميشيل، مستشارة البحث العلمي ونائبة الرئيس في أمريكا، تباحثتا معًا حول تعزيز العلاقات الثنائية بين البلدين، وتطرَّقتا لتأجيل المديونيات، وجدت جوانة تسهيلًا مُغريًا ومحيرًا أيضًا من ميشيل، فهي تعلم أن الأجانب لن يقدموا تنازلًا إلَّا إذا اقتنصوا ثمنه!

طالت المكالمة وبدأت ميشيل تسأل عن تطورات الوضع الراهن، ثم قالت لها بكل وضوح:

– سنرسل إليكم خمسمائة ألف أو يزيدون من خيرة شبابنا كتجربة أولى، ثم إذا جاءت النتائج حسنة، سنمدكم بالمزيد حتى ترتوي نساؤكم من نبعنا الصافي الذي لا ينضب.

كان عرضًا سخيًّا واتفاقًا تاريخيًّا، حتى إن جوانة كادت تكذِّبه تكذيبًا من سهولة الإجراءات والمساعدات المادية الضخمة، وفوق ذلك كله، الرجال! أمعقول هذا؟!

عادت لتسألها:

– وما أعمارهم؟ وحالتهم الصحية والاجتماعية؟ ثم من أي الفئات هم؟

– الأعمار متفاوتة، والحالات النفسية والجسدية والاجتماعية جيدة.

سكتتا من دون حاجة. ثم أكملت:

– أما بشرتهم فتقارب بشرتكن الخمرية الجميلة.

فهمت جوانة ما ألمحت له، وسألتها سؤالًا مباغتًا:

– هل هم من السود؟

– وما المشكلة؟ إنهم بشر مثلنا.

أنهت المكالمة، وعلّقت الاتفاقية حتى البت في الأمر، وفهمت أن الأمريكان يريدون التخلّص من السود بأي وسيلة كانت.

كل يوم يمرُّ أصعب من سابقه، واختبار جديد بمفرده، فبعد الغد سيأتي أول وفدٍ من الرجال إلى إحدى الدولة العربية للكشف والزواج ثم الإيلاج الكبير لإنقاذ نساء العرب من الفناء. وبينما كل تلك الأمور تشغل الرئاسة والحكومة، ووسط تلك المزايدات العالمية، إذ بقارعة كبرى تقلب الطاولة من جديد، قد ضرب الفيروس المجهول الغرب ضربةً موجعة قصَمَت ظهره وفتَّتت أحلامه الاستعمارية الجديدة، ففرَّ كل امرئٍ من أخيه وصاحبته وبنيه، وأمسى لكل منهم له شأن يُغنيه، ولم يكن الفيروس رحيمًا كما كان حاله في الشرق في بدئه، لا، بل كاد يُرى بالعين من شدَّة فتكه وجبروته، يفرُّون في الشوارع مذعورين، كأنهم ملاحَقون من وحشٍ كاسر يهرع خلفهم دون ناجٍ ينقذهم، ولا حميم يُخفِّف بكاءهم، وتحول البكاء والصراخ إلى دم يُذرف من العين المرعوبة.

ومثلما تحوّلت أمنيات المستبدِّين إلى جثث تُراق في الشوارع، سُكبت أحلام البسطاء أيضًا على الأرض كدماء الخراف تسيل من شارع إلى شارع ومن زقاق إلى آخر.

لحظة نادرة الحدوث، وفرار جماعي من كل مكان وإلى أي مكان، لكن إلى أين؟! لا أحد يعرف أين المسير؟! فما يعرفونه أن

كلًّا منهم مرصودٌ بالاسم، وسيذوق وبال أمره شاء أم أبى. حيث في الأسبوع الأول من هجوم الفيروس الضروس، أعلنت دول أوروبية وآسيوية خلوَّها من الجنس الذكوري تمامًا، فبلا رأفة راح شبح الموت يطاردهم في كل مكان ومن أي اتجاه، يُخرِج لهم لسانه في غيظ وتوعُّد بالهلاك من دون استثناء لأحد. أيام تمضي والصراخ في وداع الأحباب مبكٍ، العالم بأسره ما بين محتضِر وميت وصرخة أنثى، وعلى الرغم من العلم والحضارة وما وصل إليه العالم من تقدُّم مذهل في شتى المجالات، إلَّا أن الفيروس لم يقدر عليه أحد حتى الآن.

ظهر على الساحة مستغلُّون جدد، عرفوا من أين يصطادون ضحاياهم؟ انتهزوا فرص وجيعة الناس، ولم يكونوا شفقاء معهم على الرغم من قسوة الظروف، حيث أعلن العالِم والباحث نيكل سيكوز مطمئنًا الجموع الهلعة، أنه استعد لهذا اليوم حينما زار هذا الفيروس العرب ودمَّرهم، واكتشف تركيبة علاجية تُقاوم توغُّل الفيروس في الجسد، وبالفعل أعلن عن اكتشافه الباهر، وانتشر هذا الدواء في أرجاء الأرض يجوب ضواحيها، فسكَّن آلام مرضاها وطمأن البكَّاءين الحيارى قليلًا، وأُنتج منه دواء آخر قيل عنه إنه يُطيل أعمار الرجال، وثالث مضاد للموت، ورابع وخامس وتسابقت الشركات الكبرى في اغتيال الناس معنويًّا.

ظلت الحياة هكذا ما بين الموت والجشع في الغرب إلى أن أُميط اللثام عن تلك الخديعة البشرية، واكتُشف أنه مسكن، وكل ما قيل عنه في الإعلام الغربي ما هو إلَّا وهمٌ باعته الشركات وروَّجه المنتفعون لكسب المزيد من الأموال. لكن لا أحد منهم سأل نفسه السؤال المؤلم: بماذا تنفع الأموال في مثل هذه الظروف؟!

كان ذلك محط تساؤل كبير، ستتجلّى إجابته بعد فناء الرجال، إذ إن كل هذه الأموال المرصوصة في البنوك ستؤول ملكيتها إلى الشعوب الأنثوية، وهن فقط من سينتفعن بها في نهاية المطاف، فلو أدركوا ذلك للحظة واحدة فقط، لتركوها خاويةً على عروشها!

تبين للجميع أنها النهاية الكبرى والمعركة الفاصلة، فكان لزامًا عليهم التعامل بهدوء. فنادى من لهم الثقة والقبول من الأطباء، قائلين للنساء:

«استمتعوا بالرقصة الأخيرة مع رجالكم، والنومة الأخيرة بين أحضانهم، واجعلوا لحظات الوداع سعيدةً مليئة بالحب والذكرَى الجميلة الخالدة، لا بالشجن والعويل والفزع، فما أمتع الحب ونحن على شفا خطوة من الموت».

حينئذ، انقلب العالم على عقبيه يصول ويجول، وصاحت بعض المتمرِّدات تقول في هزءٍ:

«وداعًا أيها الرجال، وداعًا لا لقاء بعده.. شرفتمونا».

وفي غضون شهر وبضعة أيام، أُعلن رسميًّا عن فراغ كوكب الأرض من الذكور. انتهت الفوضى الضخمة في الغرب، وعادت الأمور لسيرتها الأولى، فالكل يعرف مكانه الطبيعي، ملتزم به، ومُقِر بالذي عليه، حيث انتقلت السلطة بشكل سَلِسل من دون أي تعقيدات ولا مساومات ولا تحزُّبات، فالطريق إلى الديمقراطية معروف، ولهم فيه مآرب وحكايات راسخة في الوجدان الجمعي عندهم، فتولَّت النساء اللواتي يستحققن ذلك، وتمكنَّ من إدارة دولهن بشفافية وتلقائية ووضوح مُبين، بعدما استقرت البلاد

وهدأت حدة الحزن على الرجال. عادت ماكينات العمل والحياة تدب في أوصال البلاد، ومدُّوا يد العون لبعضهن، واِندمجن معًا يستمتعن بالحياة مرة ثانية من دون أن يحملن أي همومٍ مستقبلية.

حكمت النساء العالم، وتقلَّدن كافَّة المناصب، وأتتهن الفرصة على طبق من ذهب، وكأن القدر يقول لهن: «ها أنا أمنحكن فرصة قيادة العالم، فأروني ماذا ستصنعون»؟

(8)

في هذا العالم الأنثوي المحض، لا يمكنك سماع سوى صوت الثرثرة يضجُّ أينما ولَّيتَ وجهك.

مرَّ عامٌ ونصف على العالم، ذهب عنهم الروع بعد أن بلغت النفوس التراقي ساعة الفراق الأليم الذي لم يُرَ في التاريخ قط مثله، وعلى الرغم من ذلك كله تأقلمت الإناث على فرضية العيش الجديد، فسنَّت القوانين، وشرعت الدساتير، وحدّت الحدود، وبسطت الدول الكبرى نفوذها على الدول سليبة الإرادة والموارد. أي أن الحياة رُدّت لعهدها السابق، وعادت المادة تسوقهن، وبات مَن يمتلك المال يمتلك النفوس، ولم يستوعبن فداحة الدرس الماضي ولا حتى الخطر المحدق الحالي، وهو انقطاع النسل، الذي سيؤول قطعًا في نهاية المطاف إلى فناء الجنس البشري بأكمله رغمًا عنهن، سواء قرُبت المدة أو بعُدت.

اشتعلت الحروب الكلامية بين الرئيسات، الدول الكبرى تريد التهام الدول الصغرى ونهب ثرواتها، بل محوها إن استطاعت. في كل مكان حملت النساء السلاح، وترأسن المصانع والشركات وجميع الأعمال، وأصبحن لهن الكلمة والسيادة المطلقة على جميع القرارات الداخليَّة والخارجيَّة، كما لو أنهن مُتمرِّسات بطبائعهن.

ففي بلاد الشام فرضت الشيعيات قبضتهن على مقاليد الحكم، ولم يكن ذلك إلَّا بفضل الدولة الأم، بلاد فارس، حيث أخذت في التوغل يمنة ويسرة وحصد المزيد من الدول وضمِّها إلى التحالف الجديد لتوسيع الهيمنة وتكوين الإمبراطورية الخالدة في ذاكرتهم، لكن أحلامها توقفت عند التيار السني الحاكم في المنطقة العربية، والذي كوَّن هو الآخر جبهةً قويَّة للدفاع عن أي اعتداء، وانقسمت المنطقة العربية إلى قوتين كُبريين، سنة وشيعة، ولم يكن ذلك إلَّا بالتوجيهات الخفية من بلاد العم سام، التي تُحذِّر في العلن من الدخول في أي حروب أو صراعات تجلب المجاعات والدمار للعالم كله، بينما في الباطن تدير اللعبة بجدارة. أما شعوب أوروبا فقد أغلقن على أنفسهن ومارسن حياتهن في استمتاع، يعِشن، يرقصن، ويتمتعن بالطريقة التي تُسعِد رغباتهن وميولهن.

لكن التنين الصيني والدب الروسي كان لهما شأن آخر في فرضية الواقع الجديد، حيث أعلنتا اتفاقات عديدة، ودخلا كقطب واحد يصارع بلاد العم سام من أجل السيطرة على العالم، خاصَّة بعدما أصبحت بلاد العم سام وصية بالقوة الجبرية على أوروبا وإفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط!

وعاش العالم على صفيح ساخن ينتظر شرارة البدء للمعركة.

كانت الرئيسة جوانة تراقب عن كثب ما يدور في الكواليس خارج البلاد وداخلها، حيث في داخل البلاد طلبت العلمانيات ومن على شاكلتهن بالحرية الكاملة لكل ما يفعلنه طالما لا يؤذين المخالِفات لهن، مثلما تفعل الأوروبيات الآن في الاستمتاع

بالحياة، لكن التابعات للتيار الإسلامي اعترضن اعتراضًا شديدًا في مظاهرة كبيرة وجَّهن فيها خطابًا شديدَ اللهجة يقُلن فيها:

«إن العلمانيات يُرِدن أن تَنزلق العفيفات مُنزلق الأوروبيات الخليعات، وأن يلبسن ما يكشف العورة، ويشربن الخمور، ويمارسن الرذيلة مع بعضهن جهارًا نهارًا، وعيانًا بيانًا من دون حياءٍ أو خجل».

فخرجت نائبة الرئيسة، خديجة المنتقبة، وقالت في خطاب يغازلهن: «لن نقبل بالمساس بالعقيدة الإسلاميَّة، ولن نسمح بالحرية المطلقة التي هي مَفسدة مطلقة، إنما نحن مسلمات قانتات عابدات لله لا للغرب الكافر، وعلينا المحافظة على هويتنا وثقافتنا وتراثنا الإسلامي البديع، شاء ذلك مَن شاء وأبَى مَن أبَى».

تأجَّج الخلاف بين الرئيسة ونائبتها من جهة، وبين الإسلاميات والعلمانيات من جهة، وفي المنتصف تاهت العوام، ولم تعرفن طريقًا للحق، حتى تدخلت بلاد العم سام وضمنت حل النزاع بعد الجلوس مع الفريقين المتخاصمين، وبعد فترة مخاض كبيرة طُلب من الرئيسة جوانة تقديم استقالتها، لكنها رفضت وقالت دون مهادنة وبكل قوة: «دونها حياتي.. دونها الموت». وتبيَّن لها حينها أنها وقعت ضحية لتحالُف جديد ظهرت ملامحه.

في اليوم التالي من اشتعال الأزمة، عُقد اجتماع سري بين الدكتورة ميشيل والرئيسة جوانة تحثُّها على التعاون معهنَّ مقابل الحماية والبقاء، وألمحت إلى أنهن المسؤولات عن المظاهرات التي حدثت في البلاد من دون داعٍ في الأيام الفائتة، ولهن أيادٍ قوية يمكنهن اختلاق الأحداث وإخمادها. فهمت جوانة بالطبع ما

حدث، وعلمت باليقين القاطع أنها مُقبِلة على مخطط خبيث مَصيره إما التبعية الأبدية وإما السجن. لكنها أرادت أن تكمل الحوار كي تستزيد فهمًا لمجريات الأمور، فقالت ميشيل:

– نحن على أعتاب اكتشافٍ سيغيِّر مسار العالم، لكن هناك شروط لا بد من الموافقة عليها أولًا.

– وما هي الشروط؟

– حين توغَّل الفيروس وانتشر يقضي على الرجال من دون أن يكون هناك سبب مفهوم، هرّبنا الكثير من الرجال والنساء إلى إحدى المحطات الدولية الفضائية التابعة لنا، ووفرنا لهم الحياة المناسبة هناك، حتى نتمكن من إعادة إعمار الأرض في حالة نجاحهم في التكاثر وإنجاب الذكور والإناث مرة أخرى.

صدق حدسها إذن، ولم يكن زعمًا باطلًا كما ردّ البعض عليها قولها سابقًا! فلاذت بالصمت حينًا لعلَّها تهتدي إلى الحقيقة، وقالت بلهفة مصطنعة:

– وهل تتواصلون معهم؟ هل أنجبوا بالفعل؟

– مهلًا مهلًا، كل هذه الأسئلة سنجيب عليها في الوقت المناسب.

اندهشت جوانة للحظات، ثم سألتها مرةً ثانيةً بلا تردُّد:

– وما هي الشروط مقابل الكشف عن السر؟

بلا تردُّد أيضًا، أجابت ميشيل قائلة:

– مشروع الحكم الواحد.

ارتسمت معالم المأساة على قسمات وجهها. ثم كمن تدقُّ على الحديد ساخنًا، أكملت ميشيل:

- وأحيطك علمًا، بأن الخطة قائمة لا رجوع فيها، سواء وافقتِ أم لا، لكننا نريدك معنا في العالم الجديد الذي نخطط له يا جوانة. فما الرأي؟

باستهزاء مفرط، أجابت جوانة:

- كما هو دأب أسلافكن، المكائد والفتن إن لم تنالوا ما تريدون!

ثم هبَّت واقفةً بعدما تحوَّلت الشكوك إلى يقين، وقالت بقلب واثق وعقل لا يعرف المكر:

- هذه خيانة عظمى، ولن أشارك فيها وإن كان السجن حليفي.

غادرت ميشيل الرئاسة، بينما جوانة قد حكمت على نفسها بالسجن.

وقع الخُلف في البلاد، ودُبّرت المكائد في الخفاء، وانتهت الأحداث بالانقلاب على الدكتورة جوانة بضمان من بلاد العم سام وسط اعتراض صريح من التنين الصيني والدب الروسي.

حلّت الفوضى من جديد، ودعَّمت الإسلاميات الدكتورة خديجة رئيسًا للجمهورية بعد جلسة بينهما استمرت لساعات، ورفضن إجراء انتخابات نظرًا للظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، وقوبل ذلك بالاعتراض من العلمانيات اللواتي صرخن بأعلى أصواتهن يطالبن بالانتخابات المبكرة، وإفساح المجال

لمرشَّحات جديدات، لكن أصواتهن منحصرة وجمعهن مقهور. وبالفعل نجح الانقلاب وعُينت خديجة، وأصبحت أول رئيسة منتقبة في تاريخ البلاد.

اثنتان وسبعون ساعة بالضبط، كانت كفيلة بوضع نهاية حتميَّة لكل الأوضاع الثائرة، الرئيسة وحلفاؤها في سُدة الحكم، بينما جوانة في غياهب السجن، أليست هي مَن قالت: «إن السجن أحب إليَّ مما تدعونني إليه؟!» وها هي نالت ما قضى به لسانها، وأُذيع للعالم أن سبب سجنها هو الخيانة بحق وطنها، بينما الحقيقة لا تحتاج للصدح، فهي واضحة وضوح الشمس في كبد السماء.

مضى اليوم الأول في محبسها وقد هبط الليل بظلمته المرعبة، ظلَّت جوانة تصرخ وتنادي بأعلى صوتها، ليس صراخًا نادمًا على صمودها، ولا حديثًا يستجلب رضاهم وعطفهم، لا، بل لأنهم غثاء السيل الذي سينهار حين تكتمل المؤامرة الكبرى، لكن لم يرع لندائها راعٍ، ولم يُنصت لحديثها مستمع، فكُنَّ غارقاتٍ في العطايا الثمينة التي وُزِّعت بالقسطاس المستقيم على المشاركات في عزل جوانة وتعيين خديجة.

أيامٌ أُخَر مرَّت، وهدأت البلاد قليلًا من الاضطراب العام وتنديد الباحثات بعد أن حُلَّت مشاكلهن بالتراضي، إلَّا أن أصوات الإعلاميات العلمانيات والتابعات لهن ما زالت عاليةً تصعد إلى السماء، يهتفن بأعلى أصواتهن معترضاتٍ على ما حدث، ويشجبن بأشد العبارات السيطرة على غالبية النقابات

والوزارات والهيئات المجتمعيَّة، وأنهن لم يعد لهنَّ دور ولا كلمة ولا غاية، فجاءهم الردّ من الإعلاميات التابعات للإسلاميات، وقلن:

- أليست تلك السيطرة بالصناديق، فانزلنها إن كنتن صادقات.

فأقمن المظاهرات، وأضربن في الشوارع، وبدأن يقنعن النساء المارَّات في الطرقات أن البلاد مقبلة على كارثة، لكن دعواهم لاقت فشلًا ذريعًا وإعراضًا قاصدًا؛ أولًا لأنهن يُدركن فشلهن في الانتخابات أمامهن، وثانيًا أن النساء عمومًا تعبن من الفوضى والانفلات والخلاف، ويُرِدن الاستقرارَ بأي وسيلة كانت ليعمَّ الخير على البلاد، ويرجعن لأعمالهن وحياتهن التي لا يزال كابوس فَقْد الرجال يُعشش بداخلها.

***

من البحث العلمي إلى الرئاسة ثم إلى السجن.. فاتورة العظماء في كل عصر.

نُزعت الأنواط وجُرِّدت المسمَّيات، ووُضعت الدكتورة جوانة في السجن من دون أن يُعلن عن خفايا الأسباب الحقيقية وراء هذا الاعتقال المُخزي.

وفي صراع المصالح المشتعل لم يشغلها بكاء عائلتها عليها، ولم تشغلها رسائل ميشيل المتكررة بإطلاق صراحها مقابل السكوت، ولم يشغلها أيضًا خديعة خديجة، صديقة العمر، ولا حتى المتآمرات اللواتي شاركن في الانقلاب، لكن ما شغل بالها طوال الوقت هي صديقتها الجديدة، تلك النجمة البارزة في صفحة

السماء الصافية، تداعبها كل حين، كأنما تواسيها في محنتها وحلمها البائس أيضًا.

فما زالت جوانة تحلم، تحلم حلمًا مترهِّلًا تفيق كل ليلة على إزعاجه شكلًا وموضوعًا، ثمين هو أو ربما سمين أو غريب الأطوار، فلم يعد يهم، المهم أنها تستأنس به وإن كانت في قبوٍ بلا ضوء. حيث في مساء الليلة كانت منغمسةً في سهرتها تعدُّ النجوم عدًّا كعادتها، كمن تنبش عن فقيدٍ لها، فأثار عُجبها تلك المسافات الشاسعة بين النجوم المشاهير ليلًا، كل نجمة تشغل مكانة خاصَّة في حيِّزها، تثير وهجًا يشقُّ منه النور صفًّا كأنها ليلة تنصيب أحدهم ملكًا، بينما القمر كان منكسرًا، كئيبًا، حزينًا، فيبدو أنها لم تكن ليلتَه، قد أخذ جانبًا بعيدًا واكتفى بالنور لمن حوله، ظلّت النجوم تُداعبه، تتقرَّب إليه، تُرسل إليه إشارات ممغنطة مفهومة الغرض والمقصد، لكنه كان مائلًا إلى العزلة، وسابحًا في ملكوتٍ صُنع له خصيصًا.

لم يمر وقت طويل حتى بدأ يغيب الليل تدريجيًّا ليُعلن عن بزوغ فجر جديد، فجر اختفت معه النجوم، وانحسر القمر إلى مداره، ثم ضُرب أول شعاع شمس في كبد السماء الرائقة ليملأ الأرض بالنور. إنه نوع آخر من الأمل، بل إنه الأمل الذي لا يموت، وربما هذا التعلُّق الهائم بالفضاء هو ما يبعث في نفس جوانة الهمَّة التي لا تَفتُر أبدًا.

لكن للأحلام السعيدة ذيل محزن غالبًا ما يُكدِّر نقاءها.

أنـا مَـرسى مهمـل بالسـفن المتهالكـة. أنـا قصـة بلا عنـوان تائـه وسـط الزحـام. أنـا أملٌ مرهـون بالواقـع، وحلـم يوشـك على الانتهـاء، وحصـان بلا جـواد يفـر إلى المجهـول. أنـا شـجرة ذَبُلـت فروعهـا وبهتـت ألوانهـا ظلمًـا وعدوانًـا. أنـا الخـوف والقلـق مـرة، والباعثـة المُلهمـة المُحفِّـزة لنفسـها مـرة أخـرى. أنـا التي تعـرف مـاذا حـدث؟ لكنهـا تجهـل لمـاذا حـدث مـا حـدث؟ وكيـف سـتكون الأمـور؟

جوانة

(9)

استُقبلت الطبيبة والباحثة ميشيل في القصر الرئاسي، واحتُفي بها أيَّما حفاوة، ومُنحت وسامًا تقديرًا لجهودها المُضنية في العبور بالبلاد من حالة الاحتراب الأهلي التي كانت على شفا حفرة منه أيام اشتعال الأزمة.

انصرمت أيام على الوضع الجديد ولا تزال جوانة صلبةً قويَّة لم تقبل المساومة أو التنازل عن مواقفها المشرِّفة الصامدة، ولا تزال أيضًا ملتزمة بالصمت على الرغم من الضغوط من حولها، وما يُقال في حقها، وكأنها تتفرج على مسرحية هزلية تعرف نهايتها الحتمية القريبة.

وفي أسرع محاكمة في التاريخ، تحوَّلت القضية إلى محكمة الجنايات بعد ثلاثة أيام فقط من التحقيق، وفي اليوم الرابع أمام المحكمة وُجِّهت لها اتهامات عدَّة كان في مطلعها الخيانة العظمى، فوقفت في أولى جلساتها بكل كبرياء وشموخ تستمع لِما يجري بعدما مُنِعت من الحديث إلَّا بأمر المحكمة، وقالت وكيلة النائب العام عن الدكتورة جوانة:

– لا ينكر أحد جهد الدكتورة جوانة منذ انتشار الفيروس وحتى اعتلت منصب الرئاسة، لكن كل هذا ذهب هباءً منثورًا حينما اكتشفنا أننا كنا أمام مؤامرة حيكت بالبلاد، ولأن الله يمكر بالمخادعين، انقلب السحر على الساحر، ولم تستطع هي وشركاؤها في الجريمة السيطرة على الفيروس الذي جُهز سلفًا في المعمل، فأفلتت منهم زمام الأمور، وتوغل في العالم كله يقطف الزهور المزهرة من أشجارها. فكان المخطط هو التبعية الأبدية، وأن تكون جوانة هي الدُّمية التي تُحرك.

عدّلت وكيلة النائب العام أوراقها، واستكملت المرافعة:

– ولمّا كانت الأجهزة الرقابية وضعت جميع الباحثين تحت مجهر المراقبة الدقيق حين انتشار الفيروس، خاصَّة الدكتورة جوانة التي بدأت الشكوك تحوم حولها، حالت الأقدار حينها دون القبض عليها، أما الآن قد أضحت الحقيقة الغائبة واضحةً وضوح الشمس الساطعة في وسط النهار، ولهذا تطالب النيابة بتطبيق أقصى العقوبة عليها ليعلم الذين انقلبوا أي منقلب ينقلبون.

اندفعت المحامية عن الدكتورة جوانة، وقاطعت النيابة قائلة:

– من العار أن نتهم الدكتورة جوانة التي غامرت بحياتها من أجل بلادها بالخيانة، ومن العار علينا أن نحكم عليها من دون دليل دامغ يُستنَد إليه، فكل ما قيل ادِّعاءات لا تُغني من الحق شيئًا.

ردَّت النيابة بالمقاطعة أيضًا، وقالت:

– جُلّ الكوارث الكبرى التي دمَّرت البشرية بدأت بتآمُر داخلي أولًا، وهناك العشرات من الأدلة على صدق حديثي، منها على

سبيل المثال أنها الوحيدة التي درست منحة في أمريكا، والوحيدة التي تعرف الفريق البحثي الذي جاء إلى مصر كاملًا، والوحيدة التي لها علاقات واسعة مع باحثات وباحثين في العالم، والوحيدة أيضًا التي حضرت في محافل دولية عالمية في السنوات الماضية.

قاطعتها المحامية باستخفاف من قولها:

– ما هذا الهراء الذي يُسمع؟ ألم تخجلن من تلك الاتهامات الواهية؟ هل يُعقل أن نحاسب الطامحات على طموحاتهن واجتهادهن وتفوقهن ورغبتهن في رفعة أعلام بلادهن إلى عنان السماء؟! عجبٌ مما أسمع، وآهٍ مما أرى!

فقاطعتها النيابة وقالت:

– العيب كل العيب على الذين يبتغون عرض الحياة الدنيا. ثم دعونا نسأل: أين أخوها؟! ولماذا فرَّ مع الدكتور الصيني؟! وما القول في المنشور الذي كتبه على صفحته الشخصية على الفيسبوك عن انقراض الرجال قبل الكارثة بأيام؟! وعلاقتها المتينة معه ومع الدكتور فيكتور؟!

– كل ما قيل مجرد تكهنات وتخمينات لا تُسفر عن أي دليل، وإذا كنتن تتهِمْنها لأنها كانت على علاقة عمل مع الدكتور فيكتور والدكتور الصيني والفريق البحثي، فأنتن تتهمن أنفسكن والنظام القديم أيضًا بذات التهمة.

ثم بأعلى صوتٍ، قالت:

- أطالب بمثول الرئيسة الجديدة للبلاد أمام المحكمة لتدلي بمعلوماتها حول كل تلك الاتهامات الجزافية التي ألقتها النيابة دون وجه حق وبلا أي حياء.

تحوَّلت المرافعة إلى ردح ومشاجرة بالألسنة حتى تدخلت أخيرًا القاضية وأنهت تلك المهزلة بتأجيل القضية، لكن ما كان ملاحظًا هو صمود الدكتورة جوانة وسط هذا العك الدائر.

كان حقًّا عليهن أن يسألن أنفسهن ما فائدة هذا الصراع؟! أليس العيش في هدوء واستمتاع أفضل ألف مرة من العيش في نزاع محصلته النهائية مهما طالت صفر؟! أليس الموت حليفَ كل امرأة مهما طال عمرها؟! ألم يمت الرجال من قبلُ وكنتن عليهم شهداء؟! أسئلة بلا أجوبة في ظل صراع الهيمنة الباقي ببقاء الدنيا، وتفاصيل تُسوَّى في الخفاء ربما تغيّر مسار العالم وتُبقيه طويلًا، لكنها بشروط جديدة، وواقع متغيِّر لا مساس فيه.

بدأت الرئيسة المنتقبة -ولا يُعلم لماذا ترتدي النقاب أصلًا بعد فناء الرجال!- بحزمة إجراءات إصلاحية كبيرة قدَّمت فيها نفسها بطريقة مميَّزة للمؤيدات، ووعدت المعارضات بإجراء حوار معهن للنهوض بالبلاد التي كانت على وشك الانهيار، فروّج إعلام النظام أنها بدايةً تستوعبهن جميعهن، بينما إعلام المعارضة شكَّك فيما يحدث ووصفه بالوهم لتمرير صفقة الكوكب الكبرى.

لتمرير أي صفقة مشبوهة؛ عليك ببث الفتن بين جميع الأطراف أولًا، ثم قل ما تشاء وسيصدقك الجميع.

كانت آثار الحياة البرّاقة الجديدة التي تحياها خديجة بثوبها اللامع الأخاذ لا تزال تسحرها وتمضها في آن واحد، ليس فقط من جمالها الذي لا يُوصف، وترفها الذي لا ينتهي، بل أيضًا من حزنها الساكن داخلها، وخياناتها المشينة.

أضمرت في جعبتها هذين الاختلافين، وراحت تتودَّد من جديد للمعارِضات حول كيفية العمل معًا، والنظر إلى المستقبل في ظل التحدِّيات الجسيمة التي تمرُّ بها البلاد والعالم، لكن بلا جدوى، فالمعارضات لم يقبلن المساومة، وكذلك هي، لم تقبل المساومة، فلم تجد سبيلًا سوى القوة لأجل إنقاذ الوطن من براثن الفوضى الوشيكة -على حد قولها- وهي القبضة الأمنية الحديدية لاستعادة هيبة الدولة، فكمَّمت الأفواهَ، ومنعت التظاهرات بالقوة، وفتحت السجون لكل من تُخالف القانون، وأنزلت الشرطيات في كل ضاحية من ضواحي البلاد.

وليس هذا فحسب، بل خرجت في بيانها الثاني، وألقت خطابًا حماسيًّا على المستكينات المنتظرات حلًّا لهذا الهياج الجماهيري الذي يحدث، حمل طمأنة عامة لهن، وراحةً لما يشغل صدورهن من ضمان الاستقرار ولقمة العيش، وجاء في ختام البيان الحماسي: «إننا في مرحلة انتقاليَّة حَرِجة، ولا بد من حماية البلاد من المخرِّبات الجدد، وصاحبات الأجندات الخارجية».

ظن البعض أن تلك القرارات ربما تسفر عن فتنة، أو أزمة موقدة لن تُحمد عاقبتها، لكن ما حدث كان عكس كل التوقعات، حيث كَنَّت المعارضات في بيوتهن، وسلّمن لفرضية الواقع مع أول كُرباجٍ لامس أجسادهن في الشارع، وتبين للجميع أخيرًا، أن هذا

النظـام لـن يُقايـض، ولـن يتفـاوض، ولـن يُسـاوم، وأن مُلكـه جـاء خالـدًا مخلَّـدًا فيهـا مـا دامـت الأنفـاس في النـاس، كمـا لـو أنـه قالهـا بـملأ الفـم ولـم يفطـن إليهـا الكـثير: «نحـن باقـون، فمـن أراد اللحـاق بالركـب فليركـب معنـا، ومـن لـم يُـرِد فليصمـت حتى المـوت!»

أُعـاود التفـكير مـن جديـد، وطـرح ذلـك السـؤال اللـزج للمـرة العاشـرة: مـاذا صنعـت؟! وكالعـادة العاشـرة أيضًـا للإجابـة: صمـت مطبـق! ولأجـل هـذا، تُصـارعني الهواجـس في رأسي، ويُحيـطني العجـز مـن كل اتجـاه، ولا أحـد يُـدرك مـرارة ذلـك الإحسـاس الـذي يقطـن داخلـي! فيـا ليـتني لـم أتخذهـم أخلَّاء، يـا ليـتني رحلـت منـذ سـريان الوبـاء، يـا ليـتني لـم أتمسَّـك بالوهـم.

خديجة

(10)

فَعَلَت ذلك مضطرة وقلبها يتفطَّر أسفًا. فتراءى للجميع مرة أنها نادمة مُخضَعة، ومراتٍ أخرى أنها عازمة ثابتة على أمرها، أما ما يدور في خلدها فهو مستتر عن العالمين، تكاد تكون حقيقة أخرى منطوية في النفس، حقيقة يمكن ابتلاعها لكن يصعب هضمها.

جاء اللقاء الأول منذ الانقلاب الناعم -الذي لا يزال صداه جاريًا بقوة في الشارع والإعلام على الرغم من محاولات التكتم والتعتيم- مثبِّطًا للآمال ومعطِّلًا للمعنويات؛ إذ حاولت فيه خديجة أن تلقي حجرًا في مياه رئيستها الراكدة، لعلَّها تعود إلى رشدها وترضخ بالمساومة، وذلك بعد أن استنكرت بلدان كثيرة الإجراءات التعسفية التي تُمارَس كل يومٍ وليلة بحق الدكتورة جوانة، فلم تفلح حيلها ومساعيها، بينما جوانة بالغت وغالت في تعظيم صمودها أمام العالم، حتى قهرت البعيد وأرهبت القريب.

وقالت خديجة في إلحاح المستجير التائب:

- اعذريني، فلم يكن لدي خيار آخر.

تجاهلت اعتذارها، وسألتها سؤالًا حادًّا:

- لماذا أنا هنا؟

– لأنك شريفة يا صديقتي، الشرفاء فقط من يدفعون ثمن صمودهم ومبادئهم.

– لا أصدقك، أفصحي، لماذا جئتِ إليَّ مضطرَّة؟

– لست مضطرة، ولم أكذب عليكِ، وغدًا تعلمين أني ما قبلت ذلك إلَّا خوفًا عليكِ، فالمخطط قائم سواء بنا أو بغيرنا، والمنطقة بأسرها على وشك التغيير.

قاطعتها جوانة:

– أنتِ مخادعة كبيرة مثلهن، وغدًا تدفعين ومن معك ثمن خيانتكن للأمانة. فكل همَّكنَّ هو الحكم وفقط ولو على دمار البلد، فهل تعلمين بصدق ما هو المخطط؟! أظنك لا تعلمين، أقول لك أنا: هؤلاء المتوغِّلات في المنطقة يُردن توحيد العالم حول دولة واحدة، وديانة واحدة، ولغة واحدة، وثقافة واحدة. ووقتئذ، سيفرض القويُّ نفسَه على الجميع، بينما الضعيف سيكون في الدرك الأسفل من القاع، ولن يكترث لأمره أحد.

كانت خديجة تصغي إلى الحديث بانتباه شديد، فللمرة الأولى تُدرك خبايا المخطط المحكم. واصلت جوانة كلامها:

– وللأسف أنتنَّ مجرد طُعم مؤقت لاصطياد السمكة الكبيرة. فهن يحلُمن بتكوين إمبراطورية ملكية لا تغيب عنها الشمس، وتبعية لا تنتهي، في مقابل أن يأتينا رزقنا رغدًا من دون تعب أو نصب، وهذا لأمثالكن منتهى الانتصار ما دمتن تحكمن ولو على الورق.

دَنَتْ منها، وقالت بلهجة شديدة:

- إنهن على وشك إعادة الرجال من مخبئهم، ولو نجحن في ذلك مع التمكين الحاصل، سنعيش الدهر كله عبيدًا لملكاتٍ تتجدَّد.

ضحكت خديجة وهي تقول في سخرية:

- رجال!

ثم ولَّت بخطوات حثيثة ولم تُعقِّب وهي تكتم ضحكاتها بيديها.

انكمشت جوانة على نفسها وانزوت مُستاءةً تبكي من دون مواربةٍ، فكانت لحظةً حاسمةً سلبتها لُبَّها؛ لأنها تدرك ما لا يُدركنَ، وأخبرتهنَّ بالمخطط القائم، لكنهنَّ لم يُصدِّقنَها، بل بالغن في تهكُّمهنَّ عليها، وآخرهنَّ صديقتها!

بعد يومين حضرت خديجة مرة أخرى وهذه المرة لم تكن بمفردها، كان معها المفتاح الذي سيُقنع جوانة بقبول الصفقة، أمُّها وابنتاها، احتضنَّ بعضهن باشتياق اللقيا بعد الفراق. مرت ساعات وهن يتناقشن فيما جرت به المقادير، فقالت أمها حزينةً باكيةً على حال ابنتها:

- الخروج مقابل السكوت.

تحتضن جوانة ابنتها وتكرر:

- أنا لا أعلم السكوت على ماذا؟! لكن أيًّا ما كان، اخرجي لنا ودعي لهنَّ الحكم، فنحن بحاجة إلى أن نعيش ما بقي من حياتنا مع بعض، فلم يبقَ الكثير من العمر لننتظر.

كتمت جوانة ما بداخلها. بينما أكملت الأم الرؤوم:

– لـن تسـتطيعي تغـيير الكـون بمفـردك يـا ابـنتي، فـإن لـم يكـن لأجـل خاطـري، فاقبلـي لأجـل خاطـر ابنتيـكِ.

كانـت جوانـة علـى وشـك التسـليم، لـولا ابنتهـا الـكبرى سـلمى، التي أحيـت في نفسـها الأمـل قائلـة:

– كل الطبيبـات والباحثـات في العالـم يُنـدِّدنَ بالجرائـم الموجَّهـة إليـكِ، وهنـاك تـدخُّلات مـن عـدة دول للإفـراج عنـكِ.

أحياهـا هـذا الحديـث مـن جديـد، وجعلهـا تواصـل صمودهـا لعلَّهـا تنـال مُرادهـا. فهـي توقـن أنـه لا يمكـن المراهنـة طـويلًا علـى باحثـات سُـلب منهـن وعيهـن وحريَّتهـن، وإنمـا يمكـن المراهنـة علـى صـراخ الباحثـات ذوات السـيادة في بلادهـن. ولهـذا تـصبَّرت بهـذه النفحـة التي ربمـا تجلـب لهـا الانتصـار راكعًـا.

أسـابيع وحالـة الغليـان موقَـدةً في الشـارع، ومـا كان يمكـن المراهنـة عليـه سـابقًا بـات بمـرور الوقـت مسـتحيلًا، فسياسـة النفـس الطويل إمَّـا تُهلـكك وإمَّـا تُنصفـك، والعاقبـة في ذلـك للأحـداث الجسـام والأمـور العظـام التي تفـرض وجودَهـا علـى السـاحة وسـط المتغيرات الملحَّـة، وكأن أحدهـم يضغـط علـى زر فيُـنير العتمـة أو يطفـئ النـور، شـهدت المنطقـة نزاعـات حدوديـةً جديـدةً، فهُجِّـرت نسـوة بالغصـب مـن أراضيهـن، وضُمَّـت دول إلى دول، ونجحـت انقلابـات وفشـلت أخـرى، ورفعـت كل دولـة شـعارَها الجديـد وخريطتهـا الجديـدة تماشـيًا مـع التـغيُّرات المقبلـة بسـرعة الريـاح، وذلـك بعدمـا أضحى العالـم مقسَّـمًا إلى أربـع قـوى اسـتعمارية بعـد ثلاث، العـم سـام، التنين الصيني، والدب الروسي، ورابعهم العملاق الكوري الشمالي الـذي جـاء ليبسـط نفـوده هـو الآخـر.

لم تكن جوانة بعيدة قَطُّ عن هذه التوازنات التي تمَّت مؤخرًا في المنطقة، فطالبت الباحثات المصريات بالاعتذار عمَّا حدث للدكتورة جوانة، وكذلك واصلت الجمعيات البحثية في الدول صاحبة القرار والإرادة المطالبةَ بالإفراج عن الباحثة جوانة، وارتأوا أن هذا بمثابة إهانةٍ لجميع الباحثات العِلميات في العالم بأسره. ولأن ميزان القوى يتبدل بين لحظة ولحظة، غزا العملاق الشمالي المنطقة العربية غزوًا بلا رصاص، واقتحم الدب الروسي الغرب ليقتسم الغنائم مع العم سام، ووقف التنين الصيني يتأهب لأي التحالفين يميل، واهتزَّ العالم من جديد وتغيَّرت خُططه، وبالتبعيَّة انهار النظام في مصر كما انهار في دول عربية وإفريقيا، ورفعت بلاد العم سام أيديها عن منطقة الشرق الأوسط في ظل وجود العملاق الشمالي خشيةً ورعبًا.

وها هي الحياة تبتسم للصابرين من جديد.

خرجت جوانة منتصرةً وهي ترفع علامة النصر، وارتمت في أحضان أمها وابنتيها وجميع اللواتي نافحوا عنها طيلة سجنها، وبدأت عهدًا جديدًا يسوده العمل والإنتاج فقط، لكن للأقدار حكمة خفيَّة في الشدائد التي تُحدِق بنا، ففي منتصف الليلة الأولى لها في الرئاسة ماتت والدتها في غمضة عين بعدما ارتاح فؤادها القَلِق على ابنتها إلى الأبد، بينما فؤاد جوانة أصبح فارغًا!

- «اذهبن فأنتن الطليقات».

هكذا واجهت الرئيسة العائدة عهدَها الجديد مع كل اللواتي آذَوْها من قبلُ، ولم تكن لهن بالمرصاد! ووضعت نُصب عينيها كيفية الخروج من الأزمات من دون خسائر في الأرواح، فما يُفقَد

من أرواح إزاء الحروب والأطماع لن يُعوَّض. ولأنها ليست موكلة بتغيير الكون -كما كانت تقول لها أمها- انهمكت في خدمة بلادها مع فريقها الرئاسي الجديد تفكر في سُبل مبتكرة لتوفير الخدمات للنساء، خاصَّة بعد الأزمات الطاحنة التي يمرُّ بها العالم هذه الآونة، كحرب المياه العالمية المشتعلة، ونُدرة الأراضي الصالحة للزراعة بسبب تآكل التربة، والأعطال المتكرِّرة في كابلات الاتصالات والإنترنت، والتغيرات المناخية العالمية التي تسبَّبت في نحر المحيطات والبحار وتلوُّث الهواء.

وكأنَّ الأرض تأبَى أن تحملهن فوق ظهرها، فقررت أن تُميتهن ببُطء!

(11)

قبل انقراض الرجال، حمّلت النساءُ الرجالَ مسؤوليَّة الحروب والنزاعات والفوضى العارمة في العالم بسبب أطماعهم ومخططاتهم الحمقاء، وقلنَ: «لو وُكِّل الأمر إلينا نحن معشر النساء لعاش العالم في سلام وحب ووئام منقطع النظير». واليوم، وبعد انقراض الرجال من على ظهر الكوكب، ولم يبقَ سوى النساء، لا تزال الحروب والنزاعات والفوضى في العالم قائمةً، بل تفاقم الوضع سوءًا، وكثرت الثرثرة.

دول النساء مُخرَّبة باسم الوطن أيضًا، كما كان الحال في دول الرجال! فلا فرق يُذكر ولا أمل يُنتظر، الكل شرب من نبعٍ واحدٍ.

كل الأنباء المتناقَلة مؤرِّقة من الفزع، وطبول الحرب الأخيرة تُقرَع حيثما ولَّيت، وسط مناداةٍ وتحذيراتٍ من مجلس الأمن العالمي، والذي عُقد للمرة الخامسة في الأسبوعين الأخيرين فقط، لبحث تداعيات الأزمات المتلاحقة، والوقوف على دراستها، وسُبل تجنُّب آثام الحروب وكوارثها، محاولًا في ذلك كبحَ جماحِ العاصفة قبل أن تهبَّ، فتكون حسرة ما بعدها حسرة على الجميع.

كابدت الكثير من البلاد نتيجةَ الحصار المفروض من الدول الأربع العظمى على العالم من نقص المؤن الأساسية، وشُحِّ المياه المتعمَّد، ووصل الأمر إلى قحط عام أصاب بعض البلاد. لم تُزرف دمعة واحدة من الدول العظمى إزاء الفوضى والمِحنة التي عمَّت البلدان من فقر وإفلاس وفوضى ودمار وخراب، فقد خاب مَن ظن أن قلوب النساء أرق من قلوب الرجال، فكلاهما قاسٍ إن حلَّت المصلحة!

نادت الحكومات في النساء أن حي على الفلاح حي على العمل، فأضحى العمل ضرورةً من أجل العيش لا من أجل المال، فلم يعد المال يساوي شيئًا، وأمست النساء هنَّ المسؤولات عن سدِّ رَمَق أفواه ذويهم، والسعي على أرزاقهن، وامتلكنَ زمام أمورهنَّ كاملًا، فلا رقيب يؤجِّج صراعًا أو يفرض رأيًا أو يمنح صكًّا، كما كان في الماضي القديم، وصار الحاضر كما حلُمنَ به سلفًا، لكنهن لم يَقوَيْن على العمل المجهد المكلف بمختلف مجالاته، ولم تسمح قدرتهن البدنية على الركض بحثًا وتنقيبًا لاختلاق بدائل أخرى بعد أن شحَّت الموارد الطبيعية.

فكَمْ حمل الرجال على عواتقهم نوائبَ الدهر وحدهم من دون سخط أو ادِّعاء!

خرجت نسوة من جميع بلدان العالم يُمنِّين النفسَ بيومٍ واحدٍ من أيام الرجال، حتى اللواتي كُنَّ ينادين بالمساواة مع الرجال لبثنَ في بيوتهن، وآثرنَ الراحة على تحقيق ذواتهنَّ المزعوم، ودعونَ إلى الاعتكاف ما تبقى من العمر في البيوت أهون من مرارة العمل ومشقَّته! فها هن رجعن معترفات نادمات على تقصيرهن في حق

الرجال، رغم أنَّهنَّ اللواتي كُنَّ يُشجِّعن النساء على التمرُّد على رجالهن، أمّا اليوم، فلا تكاد تسمع لهنَّ ركزًا.

بقي الوضع الراهن على ما هو عليه، وخضعت إرادة الدول المحتلَّة لأمر الدول الغازية، وتحكمت بالكلية في كل شيء تحت وطأة الوضع الواقع بالعالم، قبلت بعض الدول سياسة الأمر الواقع، والبعض الآخر لم تقبل، وكافحنَ لنيل الاستقلال، وبالطبع لم ترضخ جوانة لأي مستبِدٍّ، وخطبت خطابًا مؤثرًا في النساء قالت فيه:

«إن الموت في سبيل الحرية أشرف من العيش في كنف مستعمر يريد أن يجعلنا كالعبيد، الموت آتٍ لا فكاك منه، فلا تنتظرْنَه وأقبِلنَ عليه بقلوب لا تعرف الوَجَل، فمن يملك سلاحك وغذاءك ودواءك وكساءك فقد ملكك إلى الأبد، فقد حانت ساعة المقاومة».

وكانت هي أول من حملت السلاح، نهضت ونهضنَ معها يقفنَ لأي غازٍ يريد أن يغزو البلد، وجددت الفرصة المواتية لمدِّ أواصر الثقة بين الأمة العربية من جديد، إذ أثَّر فيهن الخِطاب، وبعث في رَوْعهنَّ ما أخفته المصالح الزائلة، ونجحت المفاوضات بالفعل، وأعلنَّ عن الاندماج العربي مرة أخرى، واستعدَّت البلدان العربية بالسلاح للفداء بأرواحهنَّ في سبيل بلادهن المعمورة، وقلنَ في بيانهن الأول:

«من الآن فصاعدًا، صار في العالم عملاقٌ خامسٌ، عملاق شرس، قادر على بث الرعب في أعدائه من الوهلة الأولى، لكنه أيضًا لا يعتدي على أي مسالم، وسَيَلْتهم مَن يقترب منه التهامًا

من دون شفقة أو رحمة، ولو كان مصيره الموت غرقًا في دمائه، فمَن مدَّ يده بالسلام أهلًا به، ومن مدَّها بالشر فسنقطعها».

وبات العالَم قاب قوسين أو أدنى من الولوج في حرب المعركة الأخيرة التي ستطيح بالكوكب ذاته إن اشتعلت، إلَّا أن الاندماج العربي جعل القوى الكبرى تعيد الترتيب مرة أخرى وفق المعطيات الجديدة.

تحت الضغط وُزِّعت الأنصبة في الاستحواذ على الكوكب بعد جلسة مجلس الأمن للتصالح لأجل وضع نهاية لِما يدور حفاظًا على الكوكب، ثم لأجل الجيل الحالي المعذَّب بين صراع المصالح الذي لا يرحم، فكان للاندماج العربي أثر قوي على العالم، حيث امتلك لجام أمره، ولوَّح بالقوة في حالة أي تهاون في الوثيقة المُبرَمة، لكن القوى الأخرى لم تصمت طويلًا، وأخذت تومئ بقطع العلاقات والمعونات، وهذه المرة كان التحالف العربي أسبق من تهديداتهنَّ، إذ أُعلنت الوحدة الاقتصادية، وجاءت بعض الكلمات قوية في خطابهن الذي نُشر أمام العالم بأسره وجاء في بعضه: «نأكل معًا، ونشرب معًا، ونموت معًا، من دون أن يكسر أنوفنا مستعمر أو يُذِل كرامتَنا محتل».

مضى اليوم الأول باحتفالاته، وفي اليوم الثاني اتسعت رقعة الأحلام ونما التفاؤل في النفوس يُحيي آمالها المطفأة، وتعجَّبت إحدى الرئيسات من قلق العالم إزاء اتحاد العرب، وقالت: «أمِن اتحادنا يرتعدون! عجبًا لقوتنا ووحدتنا». ثم جاء اليوم الثالث ومعه نذير شؤم، حيث اختلفنَ على مَن يقود العالم العربي، فبكلمة واحدة تفتَّت الجمع، وتشتَّت الرؤى، وتناثرت الأحلام، ولا يُعلم ما الذي دار في الكواليس أدَّى إلى هذا الغضب العارم

الذي انتهزته الدول الطامعة ووضعت أيديها على مقاليد الحكم في عدد من البلدان العربية.

وعادت الفُرقة تنخر في جسد الأمة العربية من جديد كما هو معهود، وربحت مقولة عربية قديمة تُردِّدها جوانة دومًا حينما يُثار الحديث عن الحكم: «ألم تقل العرب قديمًا أن المُلك عقيم».

وسط هذا الصراع الأزلي على مَن يقود العالم، تناست النسوة فلذات أكبادهن، -مخلِّفات القُبلة المشتاقة والعناق القائظ وصهد سهر الليالي المفقود المرغوب-، أطفالهن البريئات وشبَّاتهن الجميلات، اللواتي كوَّنَّ جبهة قوية لمجابهة هذا الطمع الذي طغَى على قلوب الرئيسات، وجرَّدهنَّ من أنوثتهنَّ وحيائهنَّ ولِين قلوبهنَّ من دون نظرة موغلة عميقة للنهاية الأكيدة الآتية في نهاية المطاف! فكأنهن وُلدن قائدات، فانتشرت الاحتجاجات في كل ركن من أركان العالم يطلبن السلام للكوكب، رافعات لافتاتٍ مبكية مكتوب عليها: «لا تحرمونا طفولَتَنا، دعونا نعِشْ في سلام»، وهي ذاتها اللافتة التي رفعتها طفلة تأثَّرت بوفاة أمها حيال نزاعات حدودية بين دولتين.

كانت هذه الرسالة القَشَّة التي قصمَتْ ظهر الاستغلال والتمرّد، حيث تزعَّمت الشابات والأطفال في العالم فريقًا عالميًّا من مختلف الجنسيات واللغات والديانات والألوان والأعراق، يردن استرداد حياتهن، ووجَّهن رسالةً قوية للقادات والزعيمات والأميرات المتكالبات على العروش والكراسي وفرض الهيمنة على العالم، وحمَلنَ ما كتبته الطفلة الصغيرة لإنهاء الفُرقة وإعادة اللُّحمة، وكأنَّ الرئيسات كنَّ ينتظرن أن تنوح الشابات والأطفال

نـواح الفقـد، وتبكـي بكاء الـثكالى، وتئنَّ أنين المشـتاقات، وتمـوء مـواء القطـط مـن اعتصـار الألـم الداخلـي لديهـن حيـال مـا يحـدث في العالـم مـن صـراع غير مبرَّر.

فللمرة الأولى يستفيد الكوكب من لغو النساء!

وكما لـو كانـت التنهيـدة الأخيرة لميـتٍ يُحتضَـر منـذ سـنوات، وجـاء أخيرًا وقـت الخلاص، وقـت خـروج الـروح بعـد الوجع الطويـل والكـدِّ المريـر، الآن فقـط يستريـح راحتَـه الأخيرة، ويعلـن اعتزالـه اعتزال المحـارب الصلـد، لكـن مـن سـيدفع فاتـورة الأخطـاء الفادحـة ؟!

(12)

حلّ العام الثالث على التوالي من دون رجال، وفُتحت معه جسور التواصل بين الدول، وكذلك الطموح والرجاء في إعادة تمكين الشابات من قيادة بلادهن، بعد أن كنَّ سببًا في سكينة العالم وطمأنينته مرة أخرى.

– ما الذي يُكدِّر خاطرَكِ يا أمي؟!

سألت سلمى أمها في غرابة عن حالتها المزاجية المُعكَّرة.

فتجيب جوانة بقلقٍ يعتلي صفحة وجهها:

– خالك!

– خالي؟! كيف؟

– لا أدري، أكاد أجن، بعث لي رسالة قصيرة يطمئن على حالنا، ويطمئنني عليه وعلى زوجته، ويخبرني أنها أنجبا توأمًا في غاية الجمال.

قالت سلمى في سرعة ودهشة:

– لِمَ لا تتصلين به؟! إذ ربما يكون هو طوق النجاة للعالم!

– أو يكون ضمن مؤامرة كبرى حِيكت بالعالم!

أهو حيٌّ فعلًا؟! ولماذا لم يمت بالفيروس؟! هكذا تتساءل جوانة وهي تدور فزِعةً في أنحاء الغرفة، متذكِّرة مكالمتها التي مرَّ عليها ما يزيد على ثلاث سنوات، وارتباك أخيها لمَّا سألته عن صوت رئيسها السابق في المركز تاو يونج بجانبه على الرغم من أنه سافر إلى الصين، بينما هاجر أخوها بزوجته إلى أوروبا على حد علمها. إذن لم يكن فيروسًا عابرًا، بل هي مؤامرة مدبّرة بإحكام للخلاص من البشرية جمعاء، وبناء جيل جديد يُمكن التحكم به. فبعد هذه الرسالة المريبة تبدَّل الظن إلى حقيقة راسخة في وجدانها.

استدعت جوانة مختصَّة في مجال التكنولوجيا، وأرتها الرسالة لعلَّها تهتدي إلى جواب يُريحها من عناء التفكير، فأخبرتها قائلة:

– رسالة من دون رقم، تُرسَل عبر أكواد خاصَّة كي لا يُعرَف مصدرها.

– ألا يمكن فك شفرة هذه الأكواد، ومعرفة أي تفاصيل عن مكان الإرسال؟! هذه الرسالة تهم العالم كله، فإن لم تستطيعي فيمكننا الاستعانة بخبيرات في هذا المجال من أي مكان في العالم.

ثم اخشوشن صوتها، وقالت في قوة مستعارة من وحي المعاناة:

– هذه مسألة أمن قومي، الكتمان والعمل في سرية تامة. مفهوم؟

ارتبكت المختصة بشدة، وقالت:

– أتفهَّم ذلك جيدًا معالي الرئيسة، سأبذل قصارى جهدي في حل اللغز.

حضر الليل حاملًا في ثناياه مصائب تترى. فبينما كانت رئيسة الجمهورية في أوج انشغالها في أمر الرسالة المبهمة تلك، توعَّكت ابنتها الصغرى ندى توعُّكًا شديدًا، جاءتها طبيبة تلو طبيبة من دون فائدة، وحرارتها ما زالت مرتفعةً، فضلًا عن معاناتها مع السعال والإسهال. لم تجد جوانة بُدًّا من حملها إلى المستشفى، طاقم كامل من الطبيبات المخضرمات بجوار ابنة رئيسة الجمهورية يحاولن بكافة قدرتهن فهمَ سبب التدهور المفاجئ لحالتها الصحية، تارةً يقُلن حُمَّى شديدة، وتارة أخرى فيروس مجهول ضرب وظائف جسدها، إضافةً إلى أن كل التحاليل والأشعة أظهرت خلوَّ جسدها من أي أمراض أو فيروسات!

في ظُهر اليوم التالي توقفت جميع وظائفها إلَّا النبض، على الفور أبلغوا الرئيسة بمستجدات الحالة، حضرت حضورَها الأخير لتُلقي عليها نظرة الوداع الذي لا لقاء بعده في الدنيا، أفلتت من سلمى صرخةٌ كبرى فجَّرت الحنين من قلب الأم المكبوتة، وبعد ساعة تقريبًا ماتت ندى في هدوء، وخلَّفت وراءها ألمًا لم تتسع إليه القلوب، فانفجرت منه الدموع، وعلت الآهات تدوي في جنبات المستشفى.

كان موت ندى إيذانًا بجائحة مقبلة. فقد دلَّت هذه الموتة على العذاب المهين للبشرية، وأعادت إلى الأذهان رعب الفيروس المجهول الذي فتك بالرجال فتكًا أليمًا.

أيامٌ قلائل وعاد ذات الفيروس من جديد، عاد ليريح مَن هن فوق الثلاثين عامًا، وما كانت ندى إلَّا صيدًا صغيرًا لاصطياد جميع الحيتان دفعة واحدة! أعمارٌ بأكملها تُزهق أرواحهن في البيوت

والشوارع والمستشفيات، كأن الفيروس أعطاهن فرصة التمكين المرجوَّة دائمًا لعلَّهنَّ يَكُنَّ خيرَ خلفٍ لأسوأ سَلفٍ، لكنَّهنَّ كأسلافهنَّ من الرجال، لم يَصُنَّ حقوق الشعوب والجماد والحيوان، ومارسنَ السلطوية والديكتاتورية والانتهازية بأبشع صورها.

مضى الفيروس يُشهِر سيفه كرجل يعرف ممن سيقتصُّ ويُريح البشرية، يحصد في النساء حصدًا عجيبًا، إذ صعدت الاستغاثات إلى الله ولم ينقطع مداها، صلوات في المساجد، تراتيل في الكنائس، ترانيم في المعابد، وحين اشتد الأمر واحتدم، أسرعت النساء باللجوء إلى الساحات استنجادًا بالله وخلاصًا إليه، فقد انقطعت أسباب الأرض ولم يبقَ سوى تدخُّل السماء.

أسابيع تُقضَى والوضع غير مفهوم وغير واضح، إلَّا ذلك الفيروس المجهول الذي يَعرف مقصده جيدًا، ولم يُفرِّق بين غنية وفقيرة، أو جاهلة ومتعلمة، وربما هنا تكمن عدالته، فعلى فراش الموت تتجلَّى الحقيقة المنسيَّة كفلق الصباح.

وفي تلك اللحظة العصيبة سقط القمر الساطع، ودُكَّ الجبل المتين دكًّا، ورقدت جوانة رقدتها الأخيرة، رقدة لا نهوض بعدها، تتلوَّى من الألم، وتنتفض من شدة التوجُّع، فلا دواء يشفي ولا حقن تُسعِف، الحل الوحيد هو الامتثال للألم حتى يأذن الله.

وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، قالت جوانة لابنتها في لهفة:

– أين هاتفي؟! أين هاتفي؟!

قدَّمته إليها ابنتها، ثم دنت منها وقالت:

– اعتني بهاتفي جيدًا، فربما يكون خالك هو الملاذ.

في اليوم التالي أُقيمت جنازة رسمية لرئيسة الجمهورية، وكما أقرّت الوصايا، مُكّنت سلمى من رئاسة الجمهورية، وأصبحت أول رئيسة تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، وقدَّمت خطابًا رسميًّا لما تبقى من النساء في مصر، قائلة: «في ظل هذه الظروف العصيبة، لا أطلب منكن شيئًا سوى أنكن تستمتعن بما بقي من حياتكن على ظهر الكوكب، وسنعمل جاهدات على توفير كافة السبل التي تجعلكن سعيدات، ونسأل الله أن يساعدنا جميعًا».

شهور مرت وقد أُعيد ترتيب أولويات البشرية مرة أخرى، أو ما تبقى منهن، تسلَّمت الرئيسة الشابَّة «سلمى» راية القيادة، كما تسلَّمت الشابات في أنحاء العالم راياتِ بلادهن أيضًا، جيلٌ مختلف، وتفكيرٌ مختلف، وصراع مختلف أيضًا.

الشابَّات الجُدد يَبسطن أيديهن بالخير والاتحاد والإصلاح، وقررنَ عدَّة قرارات كان في مطلعها: «لا قتل، لا لجوء، لا تشتيت، لا مزيد من أي إيذاء. فقد آن الأوان أن يستريح العالم». ورفعن شعار: «العيش معًا». وفي توالي الأحداث، أُظلمت دول بكاملها، وجُمعت شعوب ببعضهن، وصارت القارات دولًا، وسُمِّيت بأسماء مختلفة تتشابه مع الجيل الحالي وفكره الجديد، فأوروبا باتت بلدًا، وإفريقيا بلدًا، وآسيا بلدًا، إلّا العرب، مذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء، لا هم انتسبوا إلى القارات الواقعة فيهم جغرافيًّا، ولا هم أصبحوا دولةً عربية موحَّدة!

التحمت الأجساد فتقاربت القلوب ومعها الأفكار، وبات العالم لا يرى سوى البحث عن قوت يومه فقط، إلَّا الرئيسة سلمى، قد

شـغلتها وصيـة أمهـا، وراحـت تبحـث وراء تفاصيـل الرسـالة لعلّهـا تكـون هـي الفرصـة الأخيرة.

فمـا قيـل لا يحمـل المـزاح، لذلـك كان عليهـا اتخـاذ القـرار الرئـاسي المـصيري العاجـل، إمّـا البحـث عـن الرسـالة المبهمـة التي ربمـا تكـون خدعـة مـن الأسـاس، وإمّـا العيش في فَلَـك مُتَع الدنيـا حتى يأتي الموت.

(13)

لم تنسَ الفتيات المتطلِّعات للحياة نصيبهنَّ الزاهي من الدنيا.

أشيع في الآونة الأخيرة عن اختراع جديد ربما يعيد الحياة لسبيلها الغائب، وهو إنتاج أول رجل حقيقي ذي قدرات إنجابيَّة! أثار هذا الخبر ريبة وضجَّة كبيرة، خاصَّة بين الباحثات اللواتي تساءلن في عجب: كيف يتم إنتاج رجل؟!

على الرغم من أن أعداد النساء عمومًا على الكوكب تقلُّ بالتدريج ولا تزيد، وعلى الرغم من أن الموت آتٍ، وعلى الرغم من أن كلَّهن يوقِنَّ بذلك، لكن لا أحد يمكنه كبح جماح الإحساس المفقود داخل أروقة النفس البشرية، وهذا الإحساس دفع عددًا من الباحثات عن المتعة إلى الركض وراء الأمل ولو كان سرابًا موحشًا، فلربما يجدن مخرجًا ينقذن به الكوكب من الضياع، وأنفسهن من بشاعة الإحساس ولهيبه. أعمار مختلفة من الفتيات في احتياج جامح لهذا الإحساس، كل مرحلة عمرية لها إحساس مختلف، وفضول مختلف، خاصَّة لدى المراهقات، سواء اللواتي لم يشبعن من الحب، أو اللواتي لم يُجرِّبن الحب أصلًا، فبقي ذلك الإحساس متغلغلًا في أعماقهن، فلا هنَّ يمكنهن وصفه ولا هن يعرفن عوضه.

كانت الرئيسة سلمى تربَّت على يد باحثة مخضرمة، أمها، تدرك من كثب أن مثل هذه الأخبار أكذوبة كبرى، ولعبة عالمية جديدة لكسب التبعية، تمامًا مثلما تلاعبت أسلافهنَّ في السنوات الماضية بمشاعر نساء الكوكب من أجل المال والهيمنة وإعادة التقسيم من جديد، فقد ألقت هذه الأزمة بظلالها على كل مناحي الحياة، وأعادت الجدل مرة أخرى ليطفو على سطح الحياة الاجتماعية والسياسية، وهو ما جعل سلمى تعيد قراءة كل المراسلات الرئاسية المكتوبة حين كانت أمها تحكم، انكبَّت في البحث عن أي ورقة أو دليل يقودها إلى بصيص أملٍ تحذو حذوه، فوجدت رسالة مرسلة من ميشيل تؤكد أن هناك بشرًا من الجنسين في إحدى المحطات الفضائية الدولية التابعة لهن، وهن قادرات على جلبهم، لكن أتت الرياح وقتها بما لا تشتهي السفن، وكان الفيروس أسرع من حساباتهن.

وها هي روز، الرئيسة الجديدة للقارة بعد التقسيم الجديد، تعيد فتح الأمل من جديد، لكن الصيغة هذه المرة مختلفة، وهي إعادة إنتاج رجل ذي قُدرات إنجابية! ويبدو لأول برهة أن هذا خداع لمزيد من السيطرة، لكن الحقيقة تقول إن الكوكب لم يخلُ بعد من الرجال، والدليل رسالة خال سلمى!

في الأسبوع الثاني من اندلاع الأزمة الكلامية، اجتمعت سلمي بفريقها، وسردت تفاصيل رسالة خالها على طاولة المفاوضات، وكذلك الرسائل التي كانت بين ميشيل وأمها، فقالت إحداهن:

– هـذه الرسـالة خـطيرة، وتجـزم باليـقين أن هنـاك مـن يديـر الكوكـب، ولا يـزال يتحكـم في العالـم، كأنـه يرغـب في هلاك هـذه الأجيـال ليـأتي بآخريـن.

بلغة حادة وعنيفة، قالت سلمى:

– نحـن اجتمعنـا كـي نجـد حلًّا، لا كـي نـدلي بتخمينـات لا تنفـع.

ثم أعادت طرح السؤال مباشرة:

– ما الحل؟

أجابت المسؤولة الأمنية للبلاد:

– الحـل هـو إشـراك جميـع الرئيسـات في العالـم، فنحـن لسـنا بمفردنـا علـى الكوكـب.

لكن وزيرة البحث العلمي كان لها رأي آخر، فقالت عن ثقة:

– منـذ عصـر الرجـال وهـذه الـدول تبـدأ مـن حيـث انتهـى الآخـرون، أمـا نحـن، فنعـتبر الآخريـن عقبـةً لا بـد مـن الخلاص منهـم أولًا لكـي نبـدأ.

علـت وجوهَهـن غرابـةٌ مـن تحليلها للموقـف لكنهـا لـم تبـالي بهـنَّ، واسـتكملت حديثهـا:

– يـا سـادة، ليسـت هنـاك مؤامـرة بالمـعنى الدقيـق، لكـن هنـاك لغـز مـحيّر غير مفهـوم، فـبين ثقتهـم بوجـود الرجـال وبين تفاصيـل الرسـالة، تكمـن الحقيقـة الغائبـة؟

– بمعنى؟

هكذا ردّت سلمى، فأجابت الوزيرة:

– الغرب على وشك إنتاج أول رجل ذي قدرة إنجابية بالفعل، وذلك من خلال إنسان آلي تم كسوته باللحم والعظم ودس فيه حيوانات منوية مصطنعة، فضلًا عن كافة المستشعرات الحسية الأخرى. هذا ما نُشر مؤخرًا، ولا يخفى عليكن أن السبب الرئيسي هو تعويض غياب الرجل، لكن هذه المرة مختلفة عن أسلافهن الذين فعلن نفس الشيء تقريبًا. أي أن كل ما يحدث حولنا هو تمهيد واضح لعودة الرجال بصورة تدريجية حتى لا يُتهمن بالخيانة.

دُهش المجلس، وقالت إحدى الوزيرات:

– كلامك يناقض بعضه بعضًا!

لم تُعقِّب عليها، وأكملت:

– وأما بشأن الرسالة، فهي حقيقة بالفعل لا تقبل النقاش، ولا بد أن يصل الأمر كما قالت معالي وزيرة الأمن إلى الرئيسات في العالم، ليَكفُفنَ عن المتع الزائلة، ويركزن في البحث عما وراء الرسالة، لعلها تكون المنجية.

اعترضت نائبة الرئيسة على الحديث، وقالت:

– كل ما قيل مجرد تكهنات لا أساس لها من الصحة، فموضوع إنتاج أول رجل هذا هو لأجل المتعة فقط، فالغرب بديع في إسعاد نفسه من دون قيود، وأما موضوع الرجال الموجودين في المحطة الدولية، فهذا لا يصدق معالي الرئيسة. وبالنسبة للرسالة فأنا أتفق مع معالي وزيرة الأمن، لا بد من إخبار الرئيسات في العالم لعلها تكون منجية حقًّا.

على الفور عُقد أول اجتماع عربي لبحث مستجدات الأزمات الراهنة، وأول ما وُضع على طاولة المفاوضات كان مضمون الرسالة وشرح ملابساتها كاملة، وقبل أن يبدأن في الحديث عن طارئ الأمر، كانت هناك هوامش لا بد أن تُحسم، أولها أن تلتحم الشعوب العربية في بلدٍ واحدٍ وتحت قيادة واحدة، كما فُعل في العالم، ليعم السلام ويكون القرار نابعًا من القوة العربية المشتركة، لكن هذا لم يحدث، فاختُلف فيمن يحكم كالعادة، وأي البلاد تكون المأوى الآمن للشعوب العربية، ولذلك لم يُسفر الاجتماع عن رأي صائب، لكنهنَّ أعلنَّ الالتزام التام إزاء ما سيطرح على طاولة المفاوضات، وشرعت مستشارة الرئيسة سلمى تقص القصص وتحكي الحكايات العجيبة عن أمر الرسالة والمراسلات، فمنهن من تَعجَّبنَ من دون إبداء رأي، ومنهن من استخففن بالقول، ومنهن من قالت:

– نحن أمام مؤامرة كبرى، وعلينا اتخاذ كافة التدابير اللازمة للبحث بجدية تجاه هذه الرسالة.

فردَّت إحداهن:

– وربما تكون خدعة كبرى وليست مؤامرة. فهل يُعقل ما يُقال؟

وأضافت أخرى:

– نفتح المندل، ففيه أسرار ما قبلنا وتاريخ ما بعدنا وحاضرنا الذي نحياه.

كانت الرئيسة سلمى تستمع جيدًا للحديث الدائر بعمق بالغ التركيز، فهي تدري عن يقين وتجربة وحكايات ثرية بالأحداث

والتواريخ مع والدتها أنهن لن يجتمعن على شيء، لا دولة واحدة كما فعلت الغربيات، ولا شعب واحد كما فعلت الغربيات، ولا ثقافة واحدة كما فعلت الغربيات، ولذلك كان من البديهي ألّا يتفقن على وضع حلول ناجزة حول الأزمة الحالية، وانتهى الحوار إلى أول قرار عربي بالإجماع في تاريخ القمم العربية من دون اعتراض واحد، وهو مشاركة الغرب في الحوار لحل اللغز المُحيِّر الذي عجزنَ عنه.

(14)

هـوس النجـاة مهيمـن علـى العقـول، وفتنـة الأمنيـات تسـبح في فضـاء العجـب، وطمـعٌ في تحقيـق المحـال يربـو يومًـا بعـد يـومٍ في النفـس! ومـن عجائبهـن أنهـن لا يزلـن يحلمـن، ولا تـزال بدواخلهـن رغبـة مفعمـة بالأمـل لإنجـاز الكـثير مـن المهـام في وقـتٍ قـصير، رغـم إدراكهـن للفـخ المنصـوب لهـن بـإحكام في نهايـة الطريـق.

في مصـر، مهـد العلـم والحضـارة، اجتمعـت الباحثـات الغربيـات لحـل اللغـز، فريـق بحثي مـن جنسـيات مختلفـة التخصـص يبـحثن عـن مصـدر الرسـالة، أيـام بلياليهـا يحاولـن إيجـاد حـل، العالـم في حالـة تأهُّـب مسـتمر، والدعـوات تنطلـق إلى عنـان السـماء للعثـور علـى الرجـال، وكشـف عظيـم مـا خفـي. وفجـأة، وعلـى غـرار غير المتوقَّـع، تـأتي رسـالة مـن خـال الرئيسـة سـلمى، يقـول فيهـا:

«عزيـزتي جوانـة، مشـتاق إليـكِ جـدًّا وإلى أولادك، أعلـم أني اختفيـت طيلـة هـذه السـنوات، لكـن هنـاك إجـراءات صعبـة في المكان الـذي أعيـش فيـه، وأعـدك في الغـد سـأحدثك هاتفيًّـا لأطـمئن عليكـم، وربمـا نلتقـي في القريـب العاجـل. سلامي إلى والـديّ، وإلى أولادك، وتحديـدًا الطموحـة سـلمى. سلام إلى حين اللقـاء الكـبير».

كانت رسالة صادمة، فمعنى هذا أنه لا يدري ما أصاب العالم، فأين هو إذن؟ وما هذا المكان الذي لم ينتقل إليه الفيروس؟ هناك غموض يلتهم الحقيقة، ويغرز أصابعه في أعين المبصرين السائرين على درب الوصول، ليفقأ أعينهم من قاعها، فيعميهم عن الحقيقة الباطنة، ويصمّ آذانهم إن استطاع لذلك سبيلًا.

ليلة وهنَّ ساهرات على الأمل، وفي ساعة يأس إلَّا قليلًا، أعلن الفريق البحثي وصوله إلى مصدر الرسالة، وهي إحدى القرى الواقعة في الصين. فورًا أبلغوا الجهات الأمنية في الصين بالمكان، وبالفعل حاصرت القوات الصينية القرية للبحث والتفتيش، لكن للأسف تم إبلاغهم أن القرية بأكملها خالية من الرجال، وتعداد النساء فيها قليل جدًّا، ولكي يُقطع الشك باليقين نُقلت جميع النساء في القرية المذكورة إلى قلب العاصمة الصينية.

توجهت عيون العالم إلى تلك البقعة الصينية من الكوكب، جميع الرئيسات حضرن، الكل يترقب هاتف سلمى، الكل ينتظر موعد ظهور الرجل، الكل يأمل في رؤية رجلٍ يمشي على الأرض حتى ولو حمل سيفًا وجزَّ به أعناقهن!

غرب نهار اليوم الأول في انتظار المكالمة الموعودة، وغرب معه الأمل، وظلَّل اليأس على الحضور، خاصة بعدما ظننَّ أن حل اللغز أقرب إليهن من شِراك نعالهن، فكلَّ حينٍ تُقلِّب سلمى في هاتف أمها، تسير به يمنة ويسرة لعلها تتفاجأ برسالة أو مكالمة، لكن ظنها بخالها خاب. أما الفِرق المعنية بالبحث والتنقيب والتفتيش عن سرداب أو ما شابهه في الصين، لم تلِنْ عزائمهن منذ أن حللن المكان، وجُبن جميع المناطق بقُراها وضواحيها وأزِقَّتها، فلم يجدوا أي

مخبوءٍ أو مستور. مر أسبوع آخر وهن لا يزَلْنَ عندهن أمل في إيجاد مَنفَس تتسم لهن به الحياة، لكنَّ فَأْلَهنَّ أحبط واندثر كالمعتاد.

كالعائدات بالخيبات الثقال من ذُلِّ الهجرة، رجعنَ خاوياتِ الوِفاض كما رحلنَ.

انفض الاجتماع الطارئ، وعُدنَ جميعهن إلى بلادهن، شَكَّكن في بعضهن، واتَّهمن بعضَهن، حتى اتسع الخلاف على أشُدِّه، وقُطعت العلاقات، واستأثرت كل دولة بمواردها، فمَن امتلكن المياه منَعْنها، ومن امتلكن الثمار منعنَه، ومن امتلكن العلاج منعنه. ولو كانت إحدى الدول تمتلك الهواء لحبسته حتى تُذِل به الرقاب وتُميت به الأنفس موت البعير الأجرب.

شعرت روز في نفسِها بالإهانة لأنها استكانت لسلمى في حديثها عن رسالة خالها وسارت خلفها تسمع وتطيع، ولا سيِّما بعدما سخِرت منها حفيدات التنين الصيني والدب الروسي والعملاق الشمالي، وشَمتنَ فيها، وعايرْنَها، كأنهن قُلنَ بأعينهن ما عجزن عن قوله: «انظروا لحفيدة أقوى دولة في العالم تُخدَع برسالة!».

فغلَتِ الدماء في عروقها، واستشاطت غضبًا محاوِلةً استرداد كرامتها المبعثرة، وطالبت من دون خجل بسداد الديون القديمة المؤجلة منذ عهد الرجال بأرباحها كاملة، ودفعة واحدة من دون تأخير، وإلّا ستأتيها بجيش لا قِبل لها به، وستحتل البلاد طيلة العمر.

كان التهديد مثار غرابة للجميع، فقالت سلمى بكل عزَّة وكبرياء وتهكم:

– ما أخذناه ضريبةُ الاستعمار والحروب التي خلّفها أجدادك في عالمنا، فليس لكُنَّ شيء عندنا، وإن اشتقتُنَّ للاحتلال مجدّدًا، فتعالَيْن وسنمتعكن متاعًا جميلًا، ونبعثر بكرامتكن على الملأ، ثم نجعل من أجسادكن أشلاء لا تصلح لشيء؛ فقد فهمنا كيف تُدار المعركة؟ وإلى أي الحلفاء ننحاز.

في اليوم التالي، جُيِّشت الجيوش، واستعدَّت روز بحلفائها لاحتلال منطقة الشرق كلها بعد تلك الإهانة البالغة في حقها وحق شعبها، لكن ما إن شمَّر الدب الروسي عن سواعده، وأعلن العملاقُ الشمالي عن نفسه لمساعدة سلمى، خمدَتِ الشُّحنة الغاضبة لروز وحلفائها، متعلّلين بأن الكوكب لا يتحمل مزيدًا من القتال.

وبقي الأمر على ما هو عليه، وتفرَّدت كلٌّ بغايتها تتغنَّى وتتمنَّى.

(15)

كل شواهد الأمور تسير ناحية انقراض البشرية لا مناص، رغم جدّية المحاولات الدؤوبة لتعطيل الاندثار بأي ذريعة ولو مؤقتة، لكن لا مفر من المعركة الفاصلة، فقد حُسم الأمر.

لم يمضِ إلّا القلائل من الأيام في عمر تلك الحقبة الغريبة من الزمن حتى قُسِّم الكوكب إلى ثلاثة توجّهات، كل منهن لها غايتها الكبرى، فمنهن مَن يُردن الدنيا، ومنهن من يُردن الآخرة، والقليلات فقط مَن جمعن بين الدنيا والآخرة، وكأن هنالك من يمكر بالعالم ليحكمه كالقطيع!

بعد غياب وشوق، أُعلن بالفعل عن الرجل ذي القدرات الإنجابية، هاجت وماجت عليه النساء ليستمتعن به قبل زوالهن من الكوكب إلى الأبد، دول فتحت أذرعها لهذا التمدُّد الرهيب والانفلات المريب، ودول أغلقت أبوابها تمامًا، ودول ثالثة كانت بين هذا وذاك. وانتشر الرجل ذو القدرات الإنجابية انتشارًا واسعًا ومريبًا، والأدهى والأنكى أنه بات مقرونًا بالدعم الذي يوجَّه إلى الدول الصغرى، ومن صد بابه أمام التمدُّد خسر الدعم!

أيامٌ تروح بلا رجعةٍ في ظِل حياة محدَّدة، وأمل يتحرك ببطء ليُعلن منتهاه الأخير، ثم بغتةً ضُرب الأمل في مقتل، وتسيَّد القنوط الوجوهَ، وكأنهن لم يفهمن ما فُعل بأشياعهن من قبلُ، لم يفهمن الغرض من وراء التجربة العصيبة التي لحقت بالرجال ثم بهن! فقد دقَّت الساعة الأخيرة، أو هكذا يبدو للعالم، معلنةً عودة الفيروس من جديد، يقتل بلا هوادة، ويُلقي الذعر في القلوب بلا تردُّد، لم يفرِّق هذه المرة في الأعمار، وعادت الكَرَّة مرة أخرى إلى سابقتها، المستشفيات تمتلئ بالمرضى، والمصليات يتضرعن يدعونَ الله بالموت الآمن، والجثث تُقذَف في الشوارع أمام الأعين الباكية ترجو رحمةً من الرحيم، لكن لا أمل في الرحمة، فقد استنفذن رصيدهن من الفرص، ولا أحد في مأمن اليوم، وكأن الفيروس أمهل جميع الأطراف فرصًا متساوية للعدول، فلم يفهم أحد المراد.

أسابيع والفيروس يهدد العروش، ويعيد تشكيل الأولويات داخل النفوس أولًا، حتى جاء اليوم الموعود الذي هدأ فيه العالم تمامًا، بعدما نضبت الحجج، وباءت كل محاولات نجاة النساء من على الكوكب بالفشل الذريع، ولم يبقَ سوى الحقيقة العارية، الخالية من أي عبارات، وهي أن الموت حليف الجميع مهما تفنَّنوا في سُبل العيش.

وأخيرًا قنِعت الفتيات المتبقيات بالعيش معًا مرغماتٍ غير معترضاتٍ ولا محتجَّات، بل وأصبحن يقوين ببعضهن رغم اختلافاتهن، وخلافهن أحيانًا. وليس في هذا إلَّا الخوف من عتمة الكوكب، فأغلب الظن أنهن الباقيات على ظهر الكوكب،

واجتمعن عن طريق التواصل التكنولوجي، الذي بدأ يتعطَّل كما تعطَّلت بهم طرق النجاة، فقد أُظلم الكوكب بأكمله، ولم يعد إلَّا تسع نساء فقط، من بينهن روز وسلمى.

جلسن يخططن ماذا يفعلن؟ وأيَّ طريق يسلكن؟ كل واحدة تقصُّ خبرها مِن خلفيتها وتجاربها، منهم رئيسة الوزراء، ومنهن الرئيسة، ومنهن عاملة، ومنهن الطبيبة، وكلما أدلت واحدة بخبرها رفضت الأخرى، فلا تزال النعرات حاكمة مستولية على النفس، وكأن جزءًا منهن يقول: كيف لوزيرة أن ترضخ لرأي عاملة؟! وتقول أخرى: كيف رئيسة أكبر دولة في العالم تُذعن لرأي طبيبة أو وزيرة؟! بينما الجزء الآخر فيهن يأمرهن بقبول الأمر الواقع. ورغم الكبرياء، إلَّا أنهن لا يمكنهن تفكيك وحدتهن، خوفًا من أن تختطفهن جوارح السماء، أو يستأسد عليهن مفترسات الأرض.

مرّ العام الأول وهن على حالهن، يأكلن، يلبسن، يجلسن بالساعات والأيام يلعنَّ ويكفرن العيش والمعيش. وفي العام الثاني، خفتت نقاشاتهن الحادة، بل تلاشت كما يتلاشى الغبار بنفخة واحدة، وبدأن يتحمَّلن شظف العيش ومرارته، خاصة بعد تفاقُم الكارثة الجديدة المحدقة بهن، وهي انقطاع الكهرباء لمعظم الوقت، إذ مضين يأكلن من عمل أيديهن، ويتأقلمن مع الظروف المستجَدة المتأزِّمة التي ألمَّت بهن، بالرغم من أنهن مختلفات في كل شيء، في الجنسية والديانة واللغة والعِرق والقارة.

وفي العام الثالث، تعوَّدن تمامًا، فتارةً يستمتعن بهذا الفضاء الواسع، وكأنه خُلق لهن فقط، وتارةً أخرى يُقِمْنَ مأتمًا وعويلًا. وظل بين هذا وذاك شيء خفي، شيء مضمور في ثنايا النفس، يُقام

لأجله سرادق العزاء والمواساة على ضياعه سدى؛ شبابهن المنهدم، وأحلامهن المبتورة، وحياتهن السحيقة. فمَن يعوِّضهن؟! مَن يُعيد لهن أيامهن الخوالي؟! مَن يجمعهن بأحلامهن البسيطة؟! لا أحد، ولا حقيقة إلَّا الحقيقة الظاهرة للعيان، وهي أنهن كبُرن قبل أوانهن بألف عامٍ، فتشققت أيديهن، وذبُلت أبدانهن، وشاخت أرواحهن، وتجمَّدت قلوبهن من فزعة القلق على مصائرهن، وطفح على وجوههن أوَدُ الأيام وشدَّتها، ورغم كل هذا، رجعن يلُمنَ بعضهن مرة، والظروفَ والأحوالَ ألفَ مرةٍ ومرةٍ. وانقضت الأعوام تمرُّ مرور السحاب حتى وصلن للعام العاشر.

تسأل روز بعد كل هذا العمر:

- ماذا نحن فاعلات؟!

تجيب سلمى باقتضاب:

- ننتظر الموت.

لكن أخرى تضيف في جدِّية:

- أو نبحث عن مَخرج؟

وتنصح رابعة:

- الانتحار هو الحل؛ كي نرتاح من عناء انتظار الموت.

وظللن يدلين باقتراحاتهن التي هي عبث، لا فائدة منها ولا نفع يُطال، إلى أن صرخت سلمى صرخةً قوية كادت تُسمِع مَن به صمم، تجوب المنطقةَ إيابًا وذهابًا من شدة الفرح، كمن عثرت على رجلٍ ضلَّ طريقه، فقد أرسل لها خالها رسالة يقول فيها،

إنـه في انتظارهـا في جزيـرة الـوادي المنعـزل غـدًا، وفي نهايـة الرسـالة أرسـل تفاصيـل العنـوان.

لـم يُصدّقـن مـا سـمعن! فبعـد مـرور كل تلـك السـنوات العِجـاف يجـدن مَخرجًـا؟! هـل يمكـن هـذا؟! هـل تكـون هديـة القـدر لهـن؟! ولسـلمى تحديـدًا، فهـي التي لـم تتخـلَّ عـن الهاتـف، وكانـت توقـن في قـرارة نفسـها بـأن خالهـا حي يُـرزق. وفي الحال ركبن مركبًـا وقادتـه إحداهـن كونهـا خـبيرة بأمـر البحـار والجـزر المنعزلـة، وسِـرن في البحـر يبـحثن عـن جزيـرة الـوادي، أيامًـا وليـالي وهـن يتسـاءلن ويتأمَّلـن هـذا العالـم العجيـب، ومـا صـار معهـن، ومِـن قَبلهـن الرجـال، كيـف تبدّلـت الأمـور هكـذا؟! كيـف تـغيَّرت الـسُّنَن وتبدَّلـت الحاجـات؟! ومـا الـذي يُـراد بهـن بعـد كل هـذا؟! أسـئلة تُطـرح ونفـوس تتنهَّـد وعقـول تفكِّـر وأذهـان تتخيَّـل حتى وصلـن إلى جزيـرة يبـدو مـن هيئتها أنهـا هـي، مكتـوب عليهـا لافتـة كـبيرة بلغـات عـدة: «جـرّد نفسـك مـن أوهـام الدنيـا، وألـقِ ملذاتهـا جانبًـا، فإنـك في الـوادي المنعـزل».

(16)

صاح شاب من بعيد ونادى بأعلى صوته:

- غرباء في جزيرتنا، استعدوا، لقد عادوا من جديد.

وقفن أمام بوابة الجزيرة ثابتات كأنهن خُشبٌ مسنَّدة، وهن يقُلنَ بصوتٍ واحدٍ وقد طمَّ العجب وجوههن: رجل؟!

في لمح البصر، سُمع نفيرٌ عام في كل مكان في أرجاء الجزيرة، فلبثوا في كهوفهم وأغلقوا على أنفسهم، ما عدا بعض الشباب المتناثرين في أطراف الجزيرة، مستعدين ومنتظرين لإشارةٍ واحدةٍ للهجوم الضاري على سلمى ومن معها.

الجزيرة مقسمة بطريقة بدائية، كل جزء فيها يعود بك إلى قرون مضت، كهوف مرصوصة على أطراف ثلاث ممرات أساسية، كل ممر يحوي بداخله منظومةً متكاملةً، الممر الأول يُفضي بك إلى زريبة بهائم كبيرة، والممر الثاني يُفضي بك إلى منطقة زراعية واسعة ذات محاصيل مختلفة، والممر الثالث يُفضي بك إلى منطقة موالح بها ما لذَّ وطاب من النعيم. فضلًا عن المياه التي تحيط بهم من كل جانب.

منظر يغلب أي قول، ويبعث في النفس الراحة والهدوء، إلَّا أنه يدعو للشك والريبة في طرح السؤال العويص: ألم يعلم هؤلاء ما جرى بالعالم؟! وفجأة يأتيهم شابٌّ ذو جبهة عريضة وشعر مائل للصفرة، ومعه ثلاثة شبان آخرين في مقتبل العمر، قاطعين انقباضهن المنصوب على وجوههن، وقال:

– ارجعنَ من حيث أتيتنَّ، لم يعد لدينا ما يكفيكن.

استغربن من خطابه، فكأنه وقومه يعانون طيلة زمن من بلطجية، والغريب أنهن نساء! يكرر أحدهم ما قاله الفتى، ويستطرد بعزيمة وإصرار:

– لن نُمهِلكنَّ هذه المرة العبث بإنتاجنا، عُدنَ راشدات وإلَّا سنحفر قبوركن هنا.

تبيّن لهن أن الجزيرة تعاني منذ أمد من قاطعات طريق، أو بلطجة نسوية ـ يأتين إلى الجزيرة كل فترة ويأخذن خيرها عنوة وغصبًا، ويتراءى الآن أن أهل الجزيرة قرروا ألَّا يستسلموا هذه المرة، وأن يقفوا في وجه البلطجيات مهما كانت الخسائر. حاولت سلمى ومن معها حلَّ اللبس قبل أن تحتدم المعركة، لكنهم لم يمنحونهن فرصةَ الدفاعِ عن أنفسهن، وفي لمحة خاطفة أحاطوهن وقيدوهن، ثم رموهن في غرفة مغلقة ريثما يتضح لهم ما هم فاعلون بهن.

فرح أهل الجزيرة بهذا الانتصار السهل وسط تعجُّبهم وذهولهم في نفس الوقت من رضوخهن التام، وراحوا يتدبَّرون أمرهن، ماذا هم فاعلون معًا، فقال الشاب ذو الجبهة العريضة والشعر الأصفر:

– نُعلّق رؤوسهن على مدخل الجزيرة، ليكنَّ عِبرةً لأي غازٍ.

رد آخر:

– أخشى أن يكنَّ طُعمًا.

وراح كلٌّ يدلو بدلوه.

قطعت كبيرتهم هذه المحاكمة النقاشيَّة الجدلية، وكونها الحاكمةَ للجزيرة بحُكم العرف والتقاليد، قالت من دون أن يجادلها مُجادل أو يناقشها مناقش:

– ثلاثة أيام يُكرَمنَ فيهن، ويوضعن في غرفة العقاب وسط الجزيرة، لا يُحدِّثهن أحد، ولا يسمع منهن أحد، ثم في اليوم الرابع، نعقد محكمتنا، ونقتص منهن.

ثم قالت محذرة:

– ومن يقوم بخدمتهن النساء فقط.

في كل مرة تدخل فيها إحدى النساء غرفة العقاب عليهن لتقديم الأكل والمياه، تحاول سلمى محادثتها لكنها تفرُّ مسرعةً من دون أي إصغاء. تصرخ سلمى من قِلَّة حيلتها، فتمنعها إحداهن خوفًا من العقاب الجماعي، ثم تتهمنها بما حدث لهن، خاصَّة روز، تنعق في سلمى نعقًا شديدًا يتورَّع عن فعله الكفار الأوائل، وتكيل لها السباب واللعن أطنانًا، فما كان منهما إلَّا أنهما أمسكتا في بعضهما، وكالتا لبعضهما ضربًا عنيفًا من دون أن تتدخل الأخريات، حتى هدأت وتيرة الصراخ والشِّجار والشتم، وانزوت كل

واحدة في ركن تبكي منفردة، ويفكرن فيما سيُفعل بهن في قادم الأيام.

جاء اليوم الرابع سريعًا، وقفنَ أمام المحكمة ليصدر الحكم البات بشأنهن، تعاود سلمى الحديث لهم عن خالها وما حدث في العالم، لكن عائق اللغة منعهن من التواصل، وبات مجرد حديثٍ دائر يطير في الهواء من دون قيد، من دون فهم، من دون أن يمكث في الأرض فيتحول إلى واقع شفوق يُعتِقهن من الإعدام. وقبل أن ينتهيَ النقاش غير المفهوم هذا، أفرجت إحدى صويحبات سلمى عن لسانها حينما دقَّت ساعة الموت، وشرعت تتحدث مع كبيرتهم، وتوضح لها ما حدث لهن وللعالم، وسبب مجيئهن هنا، لم تكن الكبيرة مصدقة ما جرى، أمرت بفك وثاقهن، وأجلستهن يقصصن القصص باستفاضة، كانت الصدمة مرسومة على وجوههم جميعًا، كأنهم يستمعون إلى حكايات ما قبل النوم.

قالت سلمى، ومن خلفها تترجم زميلتها:

– منذ سنوات ويرسل لي خالي رسائل عبر الهاتف، ومضينا إلى مكان الرسالة المرسلة لكننا لم نجد أحدًا، ومنذ فترة أرسل إلينا رسالة أخرى من هذا المكان، فجئنا إلى هنا لمعرفة الحقيقة، فأين خالي؟ وأين أولاده؟!

ثم أكملت وقد اعتراها سؤال غفلت عنه:

– وكيف تعيشون هنا؟ ولماذا لم يصبكم ما أصاب العالم من انقراض الرجال ثم موت النساء تباعًا؟ أنا لا أكاد أصدق ما أراه!

تنهدت الكبيرة طويلًا، وهي غير مستوعبة أنها تخاطب آخر تسعة نساء في العالم الخارجي، وقالت:

– منذ أن كنت صغيرة هاجرنا من بلادنا إلى هنا مع أهالينا، وقررنا أن نعيش حياتنا البدائية تلك، قائمة على كل ما هو طبيعي، فرضنا قوانيننا، وحكمنا أنفسنا، وأكلنا من إنتاجنا، وانعزلنا عن العالم كافِين غيرَنا شَرَّنا، لا نحتاج إلى أحد، ولا يحتاج إلينا أحد. واستمر الزمن يتقلب فينا ونتقلب فيه حتى هجمت علينا قاطعات طرق، واجهناهن أول مرة، لكنهن كنَّ مُحمَّلات بالأسلحة، وهذا مخالف لشريعتنا أن نبادلهم القتل، فسكتنا امتثالًا وخوفًا، واستمر الوضع هكذا، كل فترة يجئن يأخذن ما يحتجْنَ إليه ويَمضين، إلى أن حانت اللحظة التي كَبِرفيها العيال، وصاروا شبانًا يافعين، وقرروا مواجهتهن مهما كلفهم الأمر، فاصطدمنا بكنَّ!

سألت روز:

– ولكن كيف لم يصبكم المرض؟! وأين خالها؟!

– هذا أمر الله، ليس فيه لنا يد، ونحن بالفعل واجهنا في العقد الماضي موت الكثير من الرجال، ولم نكن نعلم أنه مرض استشرى بهم وبالعالم، ولم يبق سوى هؤلاء الشباب فقط، فحافظنا عليهم وظلّلنا عليهم ليكبروا ويصيروا بصحة جيدة، ثم نزوجهم مثنى وثلاث ورباع حتى لا ينقطع النسل، وتزيد ذريتنا ويكثر مجتمعنا، فكما ترون الشابات كثيرات مقارنةً بعدد الشباب الذين يبلغ عددهم أحد عشر شابًّا فقط في الجزيرة.

كررت سلمى ثانيةً سؤالَها عن خالها وأبنائه، فأجابتها بالنفي، وأنها منذ توليها لم تسمع به ولا بقصته، ولا تعلم جزيرةً على وجه الكوكب مثل جزيرتهم، أي أنها قصدت بذلك أن تريحها من عناء الأسئلة المتكررة عن أزمتها.

ماذا هن فاعلاتٌ إذن؟! كان ذلك السؤال يدور في أذهان أصحاب الجزيرة، وكذلك سلمى وزميلاتها. مضى النهار وهن في حيرة من أمرهن، العالم كله محشور في جزيرة واحدة، الخارج مبتور والداخل مقهور ولا شيء معلوم.

وفي لحظة حاسمة غلبها الحنين، أتى الشاب ذو الجبهة العريضة يترجَّل في ارتيابٍ من أمره، وهو يقول للكبيرة والوافدات الجدد، موجهًا حديثه إلى سلمى:

- أنا أعرف قصة خالك.

- حقًّا؟! أين هو؟! أبلغني أرجوك.

قال، وزميلتها تتولى الترجمة:

- جاء إلى هنا مع وفد صيني ومكث مدة لا بأس بها مع زوجته، وحين شُنَّت حرب بين الجزيرة وإحدى الجزر المجاورة قبل فناء البشرية بشهور تقريبًا مات. كان رجلًا شريفًا، مُحبًّا لكم ولأسرته، وقبل موته كان يحلم باليوم الذي تجتمعون فيه مع بعضكم، وبعد انتهاء الحرب ضمَّت زوجته ولديها إلى حضنها، وقررت أن ترجع إلى المدينة وتعيش في أغمار الناس من جديد، ولم تلبث عامًا حتى بدأ تعداد البشرية في زوال تام، فأخذت

ولديها وعادت إلى الجزيرة مرة أخرى، وما هي إلَّا أيام حتى ماتت، تاركة توأمًا لا يفقهان شيئًا.

كانت الدموع تتسابق على خد سلمى من حكايات الشاب المتألم نفسيًّا، فلاحظت تأثُّره وسكوتَه الطويل جرَّاء بكائها، فأومأت له بمواصلة حديثه، فعاود يقول:

- وبعد عامين تقريبًا مات أحدهما ميتة طبيعية، وعاش الآخر حزينًا طوال سنوات مضت في انتظاركم.

واصلت بكاءها على فَقدِه أيضًا، وانتبهت لقوله، ثم قالت وإحساسها يؤكد حدسها:

- وأين هو؟!

قال والألم يعصر قلبه، والدموع تنساب على خده:

- أنا يا ابنة عمتي، أنا المنتظِر طويلًا حتى أرى عمتي، لكن للأسف قد خاب انتظاري.

انفجرت الآهات تخرج من صميم القلب، والحزن يضرب الوجوه الساكتة، والبكاء كأنه أنغام موسيقى لم تنقطع. انقضَّت عليه تحتضنه بين ذراعيها وتقبِّله تقبيلًا، تتفحَّص ملامحه، تتأسَّف إليه طويلًا، فأخيرًا وجدَتْ بني جلدتها، بني دمِها، تعاود ضمَّه وتقبيله مرارًا وتكرارًا كأنها تقوم بدور أمها التي اشتاقت إلى أخيها وابن أخيها، استسلم الشاب لها، ثم قال:

- وهناك مفاجأة أخرى.

أخرج من جيبه ورقةً فيها كل تفاصيل الحكاية التي كتبها أبوه قبل وفاته، واحتفظت بها أمه كوصية، حيث وجدها هو في خزانة ملابسها بعدما كبر. أعطاها الرسالة، واستهلت تقرأ بصوتٍ عال: «حينما هربتُ مع زوجتي لم يكن لديَّ حل، كنت مضطرًا للهروب خوفًا من فَقدِها، وسيأتي اليوم الذي تتعرفون فيه عليها، وتحبونها كما أحببتُها، حاولت أن أرسل إليكم رسائل مطمئِنَة لأُعرِّفكم بمكاني، لكن شاءت الأقدار غير ذلك، وأوصيت زوجتي وأبنائي من بعدي أن يحاولوا كلما أتيحت لهم الفرصة، فحسب القوانين التي نعيش بها في الجزيرة، لا يمكن الاحتفاظ بأي وسيلة حديثة، ومن يُرى منه ذلك يُطرد في الحال، لذلك كنتُ مضطرًا لأن أهرب أحيانًا لأرسل لكِ رسالة اطمئنان. على أمل اللقاء أختي العزيزة جوانة».

سكت الجميع من هول ما قيل، ثم قال الشاب موجهًا حديثه للكبيرة:

– ها أنا خرقت قواعد الجزيرة مرتين لأرسل إلى عمتي رسالةً من هاتف أبي الذي أحتفظ به عن أمي، فإنها كانت وصية لُعِنتُ في السماء إن لم أنفِّذها. وها أنا أعترف بغاية تقصيري في خرق القوانين، ولهذا أضع رقبتي تحت تصرفك، افعلي بي ما تأمرين.

أمرت الكبيرة بتطبيق القانون وطرده من الجزيرة نهائيًا. انتفضت سلمى وتجمهر الكثير من سكان الجزيرة، وراح يقول بعضهم:

– العالم انتهى من حولنا، فهل يُعقَل أن يُطرَد رجل في زمنٍ عزَّ فيه الرجال؟!!

فتردُّ الكبيرة قائلة بحسم وحزم:

– ومَن يعيد كرامة الجزيرة بعد خرق قوانينها، ألم نُربِّك على العدل والمساواة واحترام القانون؟! ألم نُلقِ في قلوبكم أنه مَن يحترم القانون فقد احترم الناس، ومن أهان القانون فقد أهان الناس؟! وهذا الشاب لم يُهِن الناسَ عن جهل، بل عن عَمد، ومصيبته في نفسه أعظم وأكبر؛ لأنه تسلَّل ونحن نِيام لتنفيذ غَرَضه، وكان يمكن أن يكون صيدًا سهلًا لغزاة لم نعلم صنيعهم فينا إذا أفلحوا في اختراق الجزيرة.

لم يقاومها أحد، فهي حجة في الرأي، ومنارة يهتدي بها كل ضالٍّ، فقديمًا علَّمتهم القراءة، وألزمت كلًّا منهم أن يقرأ كتابًا أسبوعيًّا منذ أن كانوا صغارًا بالأمر المباشر، ومن يُقصِّر في ذلك يُسجَن أو يُصلب أو يُنفَى من الأرض. واليوم كانت رؤوفةً رحيمةً به، ونفته من الجزيرة من دون صلبٍ أو سجن.

قالت سلمى للكبيرة وهي تخاطب وُدَّها وحنينَ الأم بداخلها:

– نَفيُكِ له من هنا هو دليل حب له، ولو كنتِ تبغضينه لأمرت بسجنه. ثانيًا، لو غادر من هنا بالتأكيد ستصطاده إحداهن من هنا وتتزوجه، ويبدآن في نسل جديد وذرية جديدة بعيدًا عنكِ وعن جزيرتك، فالأصح أن يكون بدايةُ النسل من هنا، تفرضين القوانين الجديدة التي تتماشى مع الحياة الجديدة، ونتوسَّع في الإعمار، وكل شيء، ونعيد إنتاج الحياة مرة أخرى بعدما كادت تُمحى.

كأنها كانت في انتظار تلك اللمحة، نُبّهت فانتبهت، وأبلغتهم أنها عفت عنه حتى لا ينقطع النسل من على ظهر الكوكب، وأن تُعمَّر الحياة ثانية. هاجوا فرحًا بما قيل، وكُتب أول دستور جديد في الحياة الجديدة وقَّع عليه الجميع، وتعاهدوا على تنفيذه مهما كانت الأوضاع، ووضعت في مقدمته جملة تتضمن بداخلها كل مناحي العيش: «العدل أساس الملك».

بعد عدة أيام أقيم أول عُرسٍ جماعي عرفته الجزيرة، أحد عشر شابًّا على إحدى عشرة شابة، وكل أسبوع يُجدد العرس على شابات أخريات، فقد قُسم لكل شاب أربع شابات وزاد بعضهم عن الحد إلى أن اكتمل العدد، ودارت الحياة تجري وتمرُّ والكل يسبح في فلكه الخاص، ولم يعد في الجزيرة خالٍ إلَّا ثلاث عجائز، وخمس عشرة سيدة، منهن النساء التسع.

أليس إجحافًا أن تُنحَّى السيدات جانبًا كما العجائز؟! في حين يستمتع كل شاب بما شاء وقدر عليه من الشابات الجميلات اليافعات. فماذا عن حاجة السيدات المتشوّقات منذ زمن طويل؟! هل عليهن أن يكبتن غرائزهن للأبد؟! أن يمُتنَ من ضيق الإحساس المتفجِّر بداخلهن وهنَّ يرَينَ كل ليلة زيجةً تُقام، وهمسة خليعة ترن صداها في جوف الليل، وأضواء غرفٍ لا تنطفئ حتى مطلع الفجر!

شغلهن ما اعتمل في قلوبهن من أسئلة تأرجحت في فضاء خيالهن الواسع إزاء رؤية كل تلك المشاهد تتراص أمام أعينهن، شغلهن حتى عن البكاء على طلل الماضي أو التفكير فيما هو قادم. لكنهن آسرّهن في جعبتهن، وكأنهن يقلن: «ليس كل إحساس

يمكننا البوح به، هناك أحاسيس يجب أن تدفن بدواخلنا حفظًا للكرامة!». فكان عليهن كبح نزيف اللهفة، وإطفاء حرارة الاشتياق، والتظاهر بأنهن زهدن الحياة بمتعها الباهرة!

مضت الليالي، وبات أهل الجزيرة يعدُّون الأيام عدًّا، وينتظرون بقلقٍ ولهفةٍ البُشرى، سواء ذكورًا أو إناثًا، وإن كانوا يرجون في النفس الذكور. وفي ليلة من الليالي الدافئة، أعادت روز سؤالها على سلمى في صوتٍ خافتٍ عن حضنها لابن خالها:

– كيف هو الإحساس؟!

تبتسم سلمى ولا تُجيب. فتكرر روز:

– يبدو أنه إحساس مثير جدًّا، أليس كذلك؟!

تعاود تبسُّمها ولا تنطق.

تنظر بحسرة إلى الكهوف المضاءة، وتقول:

– هل تتوقعين ماذا يفعلون الآن؟!

هذه المرة شردت منها ضحكة قوية ضحِكًا على إثرها طويلًا، ثم أفرجت عن لسانها أخيرًا، وقالت:

– أظن أنني أعرف، وأظن أيضًا لن يكون لنا نصيب من تلك المتعة.

عمَّ السكوت، ثم كمن فاقت على شيء مفاجئ، سألت سلمى:

– ألا يمكن أن أسألك سؤالًا ونحن على أعتاب نهايتنا؟

أومأت روز بنعم، وقد اعتلتها غرابة من فحوى السؤال.

– كانت هناك مراسلات بين أمي ورئيسة بلادكم في ذاك الوقت، وقالت بالنص: «هرَّبنا الكثير من الرجال والنساء إلى إحدى المحطات الدولية الفضائية التابعة لنا، ووفرنا لهم الحياة المناسبة هناك، حتى نتمكن من إعادة إعمار الأرض في حالة نجاحهم في التكاثر وإنجاب الذكور والإناث مرة أخرى». بالطبع هذه خرافة، أعلم، لكن ما المستفاد من نشر هذه الأقاويل بما أنكِ تقلدتِ منصب القيادة؟

قالت بحذر، كما لو أنها لا تزال تحكم العالم:

– هذا من دواخل الأمن القومي للبلاد، فلا يحق لي بالإفصاح عنه لكل سائل.

ضحكت سلمى بقهقهة عالية وهزءٍ واضح، وأتبعت:

– هذا دأبكم القديم، فكأنما ترثونه جيلًا بعد جيل.

بادَلَتها الضحكة الهازئة، وسكتت تستمتع بسخرية سلمى من حديثها. لم تمر إلَّا ساعة، وسُمعت طلقات نار تتطاير في الهواء كالمطر، وصوتُ نذير يجوب طرقات الجزيرة معلنًا ومحذرًا عن هجوم بغيض من رجال كثيرين كحبات الأرز يحوِّطون الجزيرة من كل اتجاه؛ جاءوا للغزو!

تتفرَّس سلمى في روز –الهادئة والجميع من حولها يُذعَر– بنظرات فزعة لا يعلوها أي حديث، فما كان غمغمةً صار طحنًا. لكن روز قطعت هذه النظرات، وقالت بجبروت يكتنف معالم وجهها، وعقل مُدبِّر لمكائد عظيمة:

– لا شيء يُصنع صدفةً في هذا العالم صديقتي سلمى! فها هو دأبُنا الخفي الذي لم يره العالم من قبل، ها هو البكاء الطويل والجمر المتوقد، فغدًا ظلام بلا نهار.

ثم ولَّت وجهها ناحية باب الجزيرة، وترجَّلت بخطوات واثقة رغم الهلع المحيط حولها وطلقات الرصاص التي تخترق كل شيء، وفتحت الباب على وسعه تشير لهم بالدخول.

(17)

الاستعداد مبهرٌ للغاية، ويليق بهذا الإنجاز الجديد المعمول على أرض الواقع. الجميع في غاية الترقب لرؤية الوفد البحثي العالمي الذي يضم عشرات الباحثين المخضرمين في مجال البحث العلمي من مختلف دول العالم، وهم يكرِّمون الدكتورة جوانة بسبب بحثها الجديد الذي أحدث طفرة علمية في علم الفيروسات، لكن العجيب حتى اللحظة أن الدكتورة جوانة نفسها لم تأتِ بعد، فمنذ صبيحة اليوم وهم يهاتفونها دون رد.

بتوتر شديد يسأل الدكتور يونج سؤاله العاشر المكرر:

– أين جوانة؟ هذا تهريج، الحفل سيبدأ بعد قليل.

فأجابه أحد الباحثين:

– الدكتورة خديجة ذهبت إلى بيتها لإحضارها في الحال.

وصلت خديجة إلى منزل جوانة، تطرق الباب بكل قوتها فلا تسمع سوى شجار أولاد جوانة المعتاد في الردهة، تزيد في الطرق وتنادي بعلو صوتها لعلّهم يجيبون لكن دون فائدة، وفجأة، سمعت صراخ جوانة رجّ صداه في الشقة رجًّا، فسكت أولادها من هول غضبها وحدَّتها، وسكتت خديجة هي أيضًا، ثم عاودت

طرق الباب وهي تنادي على جوانة، ففتحت لها بوجهٍ لم تألفه عليها منذ أن عرفتها:

- جوانة، ما بكِ؟! كلنا بانتظارك في المركز، لِمَ تأخَّرتِ؟!

دخلت خديجة إلى الصالة وسط ذهول جوانة، وهي تقول:

- هل غلبك النوم؟! الجميع بانتظارك لتكريمك، هيا.

أفرجت جوانة أخيرًا عن اندهاشها المرسوم على وجهها، وقالت بصرامة:

- لِمَ تآمَرْتِ عليَّ؟

- أنا! ماذا تقصدين؟!

- أنتِ كنتِ مع المنقلبات على الحكم ضدي، وأودعتموني في السجن.

ضحكت خديجة بقهقهة عالية، وقالت:

- أنا منقلبة! يبدو أنكِ كنتِ تحلمين حلمًا غريب الأطوار يا جوانة.

ثم أكملت وهي تضع النقاب على وجهها، وتقول:

- على كل حال ليس وقته الآن، علينا الذهاب إلى المركز حالاً، الوزير والوفد العلمي في انتظارك للحفاوة بكِ، هيا بنا الآن، وبعدها نتحدث باستفاضة عن الانقلاب الذي حدث معك.

استوعبت جوانة أخيرًا أنها كانت بين أحضان حلم كارثي. وفي سرعة بالغة ارتدت ملابسها وأوصت أولادها بوصاياها المعتادة، ومضت

مع خديجة إلى المركز، طيلة الطريق وهي تحكي التفاصيل وخديجة في حالة غرابة مما تسمع، لا تكاد تصدق أن عقلُها الباطن اتسع لهذا الكم من التفاصيل والحكايات المعقَّدة في نومة ليلة عابرة!

لم تكتفِ، وامتطت جوادها الفره وغاصت تسرح بخيالها وهي تحدّق في وجوه الناس، البنايات، السيارات، وتربط وجوههم الحالية بوجوههم وقت انتشار الفيروس في الحلم، فشتان ما بين الوجهين.

ثم أفاقت من خيالها على سؤالٍ مباغت:

- هل يمكن أن يتحقق هذا الحلم يا خديجة؟!

-الأجانب علمونا أن كل افتراض يوضع على مائدة البحث العلمي يمكن تحقيقه إذا توافرت النية والسبيل لذلك، أو بالأحرى إذا حان وقته. لكن على الأقل هو حتى الآن مجرد خيال يا صديقتي.

سكتت خديجة وسط انذهال لا يزال يعتلي وجه جوانة، ثم استكملت في حماسة:

-ما رأيك لو عرضنا الفكرة على أحد كُتّاب الرواية؛ إذ ربما تنجح وتلقى قبولًا واسعًا ويتم تحويلها إلى فيلم سينمائي، ويُكتب في مقدمة الرواية: «الباحثة المصرية التي أنقذت العالم في خيالها».

ابتسمت لخيالها النقي والسلس، كصفاء قلبها وفطرتها، ثم قالت:

- لا، لا أحب الروائيين ولا الروايات.

- لماذا؟!

- جُلَّ قصصهم ادّعاءات فارغة، لا طائل منها ولا منفعة.

ضحكت خديجة ثم قالت:

- أيهما أرحم، الادّعاءات الفارغة أم خلية المؤامرات التي تعتمل في خلدك دائمًا؟!

- مؤامرات؟ ربما!

وصلا إلى المركز، واحتفل الجميع بالدكتورة جوانة، وكُرّمت هي والفريق البحثي الذي خاض معها أيامًا ولياليَ حتى خرج هذا البحث إلى النور. وفي كلمتها أثناء التكريم ألقت الدكتورة جوانة كلمة شكر وعرفان للجميع، ثم خصَّت الدكتور فيكتور رئيس الوفد البحثي العالمي بسؤالها:

- هل يمكن اختلاق فيروس يمتلك القدرة على تحديد أعمار وجنس البشر؟!

علته غرابة مما سمعه، ثم بكل هدوء قال:

- علّمنا البحث العلمي أن أي فكرة قابلة للتنفيذ إذا ما وُجدت الرغبة.

تدخَّل الدكتور تاو يونج، وقال:

- يمكنه أن يكون عنوانًا لبحثك القادم يا دكتورة جوانة.

أومأت برأسها بنعم، في إشارة قوية إلى أنها عازمة بالفعل على المضي بحثًا حول معطيات هذه الفكرة العجيبة. كان مجردَ تساؤلٍ، ولم تخبر جوانة أي أحد حول تفاصيل هذا الكابوس الكارثي، إلَّا خديجة، التي كتمت سِرَّها.

انتهى اليوم الطويل ولا يزال وجهها مكتظًّا بالشكوك المحيّرة: هل هذا حلم؟! تُحدِّث نفسها طوال الوقت وهي في العمل، وهي مستلقية على فراشها، وهي تجلس مع أبنائها، وهي تكلم والديها وتعِدُهما بأنها ستأتيهم غدًا وتمكث عندهم هي والأولاد، سؤال يشلّ الفكر ويُساور القلب، ولذا؛ قررت أن تأخذ قسطًا من الراحة في بيت أبيها، أو ربما قسطًا من التفكير المرهق في كل ما يُحيطها!

استنهضت جوانة في مساء الليلة على صوت هاتفها، كان أخوها مؤمن، ردت باشتياق:

– وحشتني يا مؤمن، أنا والأولاد عندكم غدًا.

– في انتظاركم حبيبتي.

– صوتك ليس على ما يرام! هل جدَّ جديد؟

–أنا تعبت من أبيكِ يا جوانة، لماذا لا يوافق على زواجي من «لي»، على الرغم من أنكِ تعرفينها جيدًا وتعرفين أخلاقها؟! لماذا تعنُّته المبالَغ فيه هذا؟! هذا اختياري أنا ولن أتراجع عنه أبدًا مهما حدث، ولو اضطررت أن أهرب معها سأفعل. فلا أريد اتخاذ قرار بالتأكيد سيجلب لنا جميعًا المتاعب والفراق والألم. ساعديني أرجوكِ.

– لا تقلق حبيبي، غدًا سأحدِّثهما في هذا الأمر، لكن إياك أن تلوّح بالهجرة مرة ثانية. اتفقنا؟

– اتفقنا.

تَفطِن جوانة إلى عِناد أبيها وصرامته من هذه الزيجة، وكذلك تفطن إلى أخيها حينما يصرُّ على تحقيق ما يصبو إليه. وفي اليوم التالي ذهبت جوانة إلى منزل والديها وسط ترحيب غير اعتيادي منهم؛ بسبب تكريمها الميمون، واستغلت هذه المناسبة السعيدة في محاولة إقناع أبيها بقبول الزيجة، لكنه رفض بعزم، فلم تجد حيلة إلَّا أن أجَّلت الحديث بشأنه لحين أن يهدأ ثم تعاوده مرة أخرى، وراحت تُقنع أخاها بذلك، فسكت ولم ينطق، فقالت له مازحةً وهي تحاول تغيير مجرى الحديث:

– هل تعلم يا مؤمن أني حلمت بك وبحبيبتك الصينية هذه، أنكما سافرتما إلى جزيرة منعزلة وبدأتما حياة جديدة هناك، وأنجبتما ولدًا يشبه القمر في طلَّته.

تلجلج مؤمن قليلًا، ثم استجمع شتاته وقال:

– هذا ما قررناه بالفعل، هي أخبرَتْك إذن!

– ماذا تقصد؟! هل بالفعل ستهاجر؟!

– جوانة، لا أكتمك سِرًّا، اتفقنا معًا إن لم يوافق أبي على الزواج، سنسافر إلى بلادها ونبدأ حياتنا، وبالنسبة لأخيها ليس لديه مانع، فقد ترك القرار لنا. هل تدركين الفرق، البنت أخوها ترك لها حرية الاختيار، بينما أبوكِ يعاملني كطفل، أليس هذا بؤسًا؟

ثم قاطعها حينما أرادت أن تقول شيئًا:

– معكِ ثلاثة أيام فقط، وبعدها سأحدِّثك وأنا على متن الطائرة.

يومان مرَّا ولم يَشغل بال جوانة قصة أخيها، لكن ما شغلها حقًّا هو الحلم الذي بدأ يُفسر نفسه بتفاصيل مختلفة، هل يُعقل أن يتحقق؟! سؤال طرحته جوانة على نفسها مرارًا من دون أي إجابة تشفي صدرها العليل. وفجأة اتصلت بها خديجة وقالت في صوت مبحوح من هول مصيبة وقعت:

– يبدو أن حلمك سيتحقق!

– نعم! كيف؟ ماذا حدث؟

– المركز القومي للإحصاء والتعبئة أرسل إلينا منشورًا ظهر اليوم يفيد بكارثة تشبه الكارثة التي حلمتِ بها. وليست هنا تكمن المصيبة فقط، بل للأسف الشديد هناك مصيبة أخرى أود إبلاغك بها لتكوني على علم مُسبق بما سيجري.

– ماذا جرى يا خديجة؟

– صَدر قرار منذ لحظات بالتحقيق معك على خلفية ما ذكرتيه أثناء تكريمك في الحفل الفائت، ووجَّه البعض إليكِ تهمًا جزافية بأنه لم يكن تساؤلًا بل كانت خطة مدبَّرة لتدمير البلد.

أحاط جوانة دُوَار أفقدها اتزانها لثوانٍ، وقالت بلهجة تهديد:

– مَن يجرؤ على اتهامي؟! أنا الـ....

قاطعتها خديجة، وهي تقول:

– لا فائدة يا جوانة، فقد صَدر القرار، وربما تجدينهم يَطرقون الباب عليكِ الآن.

بعد لحظات طرق الباب ضباط من الأمن الوطني، فتحت الباب على مصراعيه وقد فغرَتْ فَمَها والذهول يكاد يقتلها، وقال لها أحدهم بلطف وودّ:

– دكتورة جوانة، بكل هدوء تفضلي معنا.

(18)

ماذا حدث؟!

سؤال تثيره جوانة بداخلها، لكن الإجابة ملتبسة!

جلس المحقق على الكرسي ووجَّه نصيحةً هامسةً للدكتورة جوانة قبل بدء التحقيق:

– الوضع كارثي يا دكتورة، أرجوكِ تعاوني معنا لأجل مصلحة البلد، لا نريد منكِ سوى الحقيقة كاملة، احكِ لنا كافة التفاصيل عن هذا الفيروس، مَن الممول؟ وكيف انتشر؟ وأي دولة أنتجته؟ وكيف يمكن إيقافه؟ وأنا أعدك بأني سأساعِدك في الخروج بأقل الخسائر.

اعترتها دهشة غامرة إزاء ما سمعته، وقالت مدافعةً عن نفسها:

– ما لي أنا وما تقول، وأي وضع هذا الذي تتحدث عنه؟! أنا بريئة من كل هذا.

ازدادت نبرة صوتها حدّة وجسارة:

– ثم لماذا أنا هنا؟!

هـبَّ المحقـق واقفًـا وقـال باسترسـالٍ لـم ينقطـع، كمـن تحـوَّل إلى مستشـار في قاعـة المحكمـة:

– أنـتِ متَّهمـة بالتخابـر وتنفيـذ أجنـدات خارجيـة للإضـرار بمصلحـة البلـد مـن خلال تصنيـع فيروس يـقضي علـى النسـل المصـري بمسـاعدة بعـض الباحـثين الأجانـب، وكانـت إشـارة البـدء لإطلاق شـرارة الـفيروس هـي لحظـة تكريمـك في المركـز، وقتمـا وجهـتِ سـؤالكِ لدكتـور فيكتـور بقولـك: هـل يمكـن اخـتلاق فيروس يمتلـك القـدرة علـى تحديـد أعمـار وجنـس البشـر؟!

صرخـت بصـوتٍ عـالٍ مـن هـول وقـوع الصدمـة عليهـا، وقالـت:

– لـم يحـدث، يسـتحيل أن أضـرَّ ببلـدي، كان مجـرد حلـم، والله مجـرد حلـم.

بنفس اللهجة، استكمل المحقق تُهَمه، وقال:

– كل الدلائـل ضـدك، فلا داعـي للإنكار يـا دكتـورة، الـفيروس ينهـش في جسـد النسـاء ويحصـد أرواحهـن بلا رحمـة. أدلِ بالحقيقـة لعلَّنـا نسـتطيع أن نُنقـذ مـا تبقـى.

نساء؟!

يزداد اندهاشها وبكاؤها، وهي تقول:

– لم يحدث، كان حلمًا، اسألوا خديجة.

يـوم بأكملـه وهـي تبكـي وتقـول: «كان حلمًـا، اسـألوا خديجـة»، وفي اليـوم التـالي اسـتُدعيت الباحثـة خديجـة لسـؤالها عـن هـذا الحلـم؟ فأجابـت:

– لـم تحـكِ لي شـيئًا عـن هـذا الحلـم، لكنهـا أخبرتني أنهـا أمـام تجربـة نوعيـة سـتغيِّر مسـار العالـم.

– وما هي هذه التجربة؟

– لا أعـرف في الحقيقـة، فهـي كتومـة بطبعهـا، وطـوال الوقـت تتحـدّث بالألغـاز.

كانـت جوانـة تسـتمع لخديجـة في حـزنٍ ممـزوج بعجـب، والدمـوع تتسـاقط على وجنتيها مـن دقـة التلفيـق المنمـق، فـأي زمنٍ هـذا الذي يبيـع فيـه الصديـق صديقـه وبثمـنٍ بخـس؟! لـم تعظـم المصيبـة عنـد جوانـة إثـر كـذب صديقتها فقـط، بل تعاظمـت أكثر في قلبها حينما لم تحفـظ لهـا أيَّ وُدٍّ، وراحـت تُشـكك النيابـة في جميـع أبحاثها السـابقة.

فـاق الأمـر قـدرة جوانـة على الاحتمـال، وبلا إرادة هجمـت عليهـا تريـد نـزع لسـانها المجـرم كـي لا تتفـوَّه بـه ثانيـة، وهـي تُـردِّد لفظًـا واحـدًا بكل جوارحهـا: «كاذبـة»، لكـن الأمـن حـال بينهمـا، وأمـر وكيل النائـب العـام خديجـة بمغـادرة غرفـة التحقيـق. بعـد دقائـق هـدأت جوانـة، واسـتُكمل التحقيـق باسـتدعاء الدكتـور صبري مديـر المركـز ومعـه رئيـس القسـم الدكتـور تـاويونج مـن صالـة الانتظار لسـؤالهما:

– ما قولك فيما نُسب للدكتورة جوانة؟

أجاب مدير المركز:

– كل شيء وارد، ونحـن في المركـز نعمـل بكل طاقتنـا لمعرفـة كواليس الحقيقـة، وقريبًـا سنكشـفها.

– تقصد أن الدكتورة جوانة ربما تكون متورِّطة في انتشار الفيروس المجهول هذا؟

– لا أمتلك دليلا لهذا، لكن هناك تخمينات واضحة، كالأبحاث، المعامل والمختبرات المغلقة دائمًا والتي لا تفتح إلَّا بعلمها، الدكتور فيكتور الذي هرب إلى بلاده فجأة، وكذلك الدكتور أمجد الذي استدعته قبل الأزمة بأيام ورافقها طيلة بحثها.

نهض المحقق، وأجلس الدكتور صبري على الكرسي، وقال له بهدوء:

– احكِ لي المزيد من التفاصيل عن هذين الدكتورين تحديدًا.

– ببساطة الجميع يعلم أن الدكتور فيكتور غادر عقب المؤتمر الأخير، رغم أنه أعلن لوسائل الإعلام الغربية والمحلية أنه سيمكث في مصر بضعة أيام لزيارة معالمها التاريخية! فضلًا عن أن رأيي فيه كباحث عليه علامات استفهام كبيرة، وإجابتها عند الدكتورة جوانة.

نظرت جوانة إليه شذرًا، أوشكت أن تَفتك به لكنها علمت أنها أمام مؤامرة مدبَّرة تجاهها، فلزمت السكوت والسكون، وفضَّلت الاستماع لما يُدار بوجهٍ هادئ وقلبٍ يغلي. بينما المحقق لا يريد سوى الدلائل بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى، فقال:

– ومن يكون الدكتور أمجد؟

– باحث شاب، استدعته الدكتورة جوانة منذ فترة لمساعدتها في البحث، هذا كل ما أعرفه عنه.

تنقشع الغمائم القاتمة رويدًا رويدًا دون تفسيرات واجتهادات مضنية، ويبدو أن الأيام المقبلة ستشهد حماقات كثيرة.

أدار المحقق وجهه إلى المستدعَى الثالث في القضية، وهو الدكتور تاو يونج، وسأله نفس السؤال:

- ما قولك فيما نُسب للدكتورة جوانة؟

- لا يشكك في الدكتورة جوانة إلَّا فاشل أو حاقد، فهي مخلصة لوطنها، متفانية لعملها، محبَّة للجميع. فمن أين يأتي التآمر إذن؟!

انفرجت أسارير الدكتورة جوانة وأطلقت تنهيدة أليمة تغالبت عليها بقطرات الدموع، فأخيرًا وجدت منصِفًا أمينًا.

علا وجه المحقق غرابة من المدح، فسأله:

- هل يمكن أن يُصنع فيروس موجَّه بهذه الدقة؟

- لا، من المستحيل أن يحدث هذا.

- وما رأيك في الدكتور فيكتور كباحث؟

- باحث مخضرم في مجاله، ومن غير المعقول أن نتهمه من دون أدلة دامغة.

ثم سكت قليلًا، وأضاف:

- وبالمناسبة هو لم يهرب، فقد اتصلت به زوجته بعد المؤتمر وأبلغته أن ابنته توعكت توعكًا شديدًا، وهي بحاجة ماسَّة لرؤيته، فكان من البديهي أن يعود إلى دياره في الحال.

تمعَّن المحقق في حديث الدكتور يونج، الذي يجيد العربية كما يجيد الصينية، وسأله:

– وهل من المعقول أن تتوعَّك ابنته في هذا التوقيت تحديدًا؟! أليس صدفة غريبة يا دكتور؟!

رد الدكتور يونج بتلقائية فريدة:

– يمكن أن ترفع هذا السؤال إلى الله وليس لي!

انتهى التحقيق، وأُودعت الدكتورة جوانة في السجن لحين ثبوت أدلة جديدة، وغادروا الثلاثة إلى المركز كلٌّ إلى عمله وتخصُّصه لمتابعة الكارثة المتزايدة في البلاد. وفي اليوم التالي جاء إلى المركز وفود من الباحثين للمشاركة في هذه الكارثة التي صارت حديث العالم في الآونة الأخيرة، وشاركوا معهم كافة التفاصيل، وآخر ما توصَّلوا إليه بعد الأبحاث المجراة على النساء، أنهم خرجوا في بيانٍ ألقوه على الناس، جاء فيه أنه «فيروس مجهول».

بدأ الفيروس يتحوّر بطريقة مذهلة، كل يوم يكشف عن نفسه بجرأة، وبات ينتشر تدريجيًّا في أجساد كل اللواتي فوق الستين، فيبدأ أولًا بشلِّ قدرتهن على الحركة، ثم موتٌ مريع. احتل الرعب القلوب والوجوه فارضًا العجز، حتى إن الباحثين الجُدد اللذين جاءوا من كل حدبٍ وصوب يساعدون الدكتور تاو يونج في مهمته الأخيرة لإنقاذ مصر من هذا الفيروس المفترس، عجزوا عن الوصول لأي نتيجة حتى الآن، والأبشع هو حديثهم الأشد قسوةً على النفس من الفيروس ذاته، بسبب بياناتهم وتحليلاتهم اليومية للمصير المجهول الذي سيدمِّر أجيالًا بأكملها.

ماذا أفعل؟!

هكذا يسأل الدكتور يونج نفسه بعد أن خذله المقربون، فالدكتور صبري نحَّى نفسه جانبًا، وحتى خديجة لا يعلم عنها شيئًا، قد أخذت إجازة مفتوحة واختفت. أما هو فحاول كثيرًا مع المسؤولين لجلب تصريح خاص للجلوس مع الدكتورة جوانة بشأن الفيروس والحلم، فلم تُجب دعوته، وباءت مساعيه بالخيبة، فهو على اقتناع بأن حلم جوانة هو المنقِذ.

لم يجد الدكتور يونج بُدًّا من تصعيد الأزمة، وطالب الرئاسة بضرورة الجلوس مع الدكتورة جوانة لبحث تداعيات الأمر، فلا سبيل لديه سوى ذلك، فكل التقارير البحثية التي يقوم بها الفريق البحثي توحي بكارثة مقبلة لا مفر.

بعد أسبوع آخر استجابت الرئاسة لطلبه، وزارها في محبسها تحت حراسة أمنية مشدّدة، كأنهما مجرمان خطيران يهددان الأمن القومي. قابلته ببكاء أبكاه على حالها، ثم مضت تسترسل له الحلم بتفاصيله الدقيقة، ومضى هو الآخر يدوِّن كل ما تسرده الكلمات وتلمحه العيون، فتارةً يبكي من فظاعة الحكاية وتارة يخاف من تكرارها حتى انتهت، وقد أفضت بكل ما لديها، وسكبت كل ما عندها، ثم سألها:

– لكن الفيروس الحالي يصيب النساء وليس الرجال؟

تنهدت وهي تهزّ كتفها في إشارة منها بالعجز عن فهم ما يحدث.

– ولماذا أنكرت خديجة كل هذا؟ ولماذا شكّك فيكِ الدكتور صبري؟

– لا أعلم.

وعاودت تبكي بكاء المضطر من رفع شكواه إلى الله.

طمأنها الدكتور يونخ بقوله:

– ستنقشع الغمَّة قريبًا يا جوانة، فاصبري.

وأردف حين همَّ بالخروج:

– ومن يكون الدكتور أمجد؟

– باحث نابغة في تخصصه، تعرفت عليه في أحد المؤتمرات العلمية، ووعدته بأني سأوفّر له فرصة في المركز، خاصَّة بعد أن عاد من الدراسة في الغرب ليفيد بلده بعلمه، وبالفعل وقَّع الدكتور صبري قرار تعينه، لكن لظروف شخصية تأخر قدومه إلى المركز، وبالمناسبة هو الذي ساعدني في بعض التفاصيل البحثية المعقدة التي أعجبتك.

– وهل يعرف الحلم؟

– يعرف كل تفاصيله، حكيت له بعد خديجة، لكني لم أكن أريد الزجّ باسمه في التحقيقات حتى لا أورّطه.

حدّق في ملامحها بقليل من الشك دون أن ينطق، ثم بلع شكوكه في جوفه وغادر.

شعر الدكتور تاو يونخ بعلامات الموت على وجه جوانة أثناء حديثها في المحبس بعدما عاد إلى منزله، لا يدري في أي فلك يسبح، فلك جوانة وهمّ إثبات براءتها، أم فلك إنقاذ الناس وسمعته العملية الرفيعة. في تلك اللحظة غلبته الدموع، واستدعى من

سـديم الذاكـرة مـا ظـنّ أنـه تلـف، وكأنـه يُشـاهد العـرض الأخير لحكايـة ظلّـت سـاكنة في الفـؤاد لـم تبرح مكانهـا. سـنوات طـوال وهـو كلّمـا تقـرّب مـن جوانـة ازدادت عنـه بُعـدًا، فكأنمـا علمـت مـا في نفسـه مـن مشـاعر جامحـة فأحجمـت عنـه، وكأنمـا علـم إعراضهـا فكتـم حبـه بين الضلـوع خشـية أن يفقدهـا للأبـد.

جـاء اليـوم التـالي وتحققـت معـه نبـوءة الدكتـور يـونج، وودّعـت جوانـة الدنيـا بكل مـا فيهـا مـن أطمـاع وعـداوات ودسـائس، ودّعتهـا بحـزونٍ غمـرت الفـؤاد، وأوجـاعٍ مـن شـدّتها حفـرت ندوبًـا في الجسـد كمـا لـو خاضـت حربًـا شـعواء. اليـوم فقـط تسـتريـح بعدمـا أضحـت في مأمـنٍ مـن اللدغـات والمكائـد.

حُملـت جوانـة علـى الأعنـاق في هـدوء تـام كسـليقتها النـادرة الطيبـة، بعـض أهلهـا وأصدقائهـا وطلابهـا، وتـاو يـونج، ذلـك الـذي أحبهـا في صمـت حتى أعيـاه وأمضّـه، لكنـه اليـوم لـم يسـتطع كبـت مشـاعره، وناح علـى الملأ أمـام قبرهـا يتوسـل لـو عـاد بـه الزمـن للـوراء ثانيـة واحـدة فقـط لـاعترف لهـا بحبـه، وراح يلـوم نفسـه علـى مغالبـة هـواه طيلـة السـنين الطويلـة الفائتـة!

ها أنا اليوم أكابد الهوى دونها كما لو أن قلبي فارق موضعه، بل كما لو أن الدنيا بأسرها غادرتني وأبقتني وحيدًا لا وزن لي ولا منفعة، فوددت الآن لو أني أمتلك الشجاعة الكافية لأرحل عن هذا العالم بهدوء كما رحلت جوانة، لكنّي أجاهد نفسي لأجل إثبات براءتها وفقط.

تاو يونج

(19)

اعتقَدَ أنه قصَّر غاية التقصير في حقها، فلولاها لما كان اليوم حاضرًا محضّرًا، ولا باحثًا مؤثرًا.

خفّف الدكتور يونج وطأة الصدمة على الدكتور أمجد إثر معرفته خبر وفاة جوانة، وأبلغه أن أثمن ما يمكن أن يُسديه إليها هو إثبات براءتها، وفي صباح اليوم الثاني استقدمه للعمل معه في فريقه البحثي، وسمح له باتخاذ كافة الصلاحيات التي يراها مناسبة دون الرجوع إليه. ومنذ اليوم وقد شغله تغيّر حالة الكثير من المصريين المزاجية فجأة وإقلاعهم على السخرية والهزل، كما لو أدركوا أخيرًا أن هناك لصًّا متخفِّيًا يريد سرقة تاريخهم من الأرض! فالآن فقط، بدأ الجميع يسمع للعلماء، وكان أول التنبيهات هي الفحوصات اليومية، والتوجُّه إلى أقرب مستشفى إذا أحسوا بأي أعراضٍ طارئة.

سارت الأمور في نِصابها الموضوع شهرًا كاملًا، ما بين البيانات اليومية والوداع الحزين، وبين حيرة الباحثين وعجز الأطباء عن تخفيف الألم على المرضى.

وفي أحد الأيام، اقتحم أمجد غرفة رئيسه يونج وقال بذُعر:

– أتتنا تقارير جديدة تفيد بأن حالات الموتى في المستشفيات من النساء ارتفعت بشدة.

– والأعمار؟

أجاب وهو مُطأطئ رأسه:

– جميع الأعمار بلا هوادة.

انقلب المركز رأسًا على عقب، ورُفعت حالات الطوارئ إلى درجتها القصوى، وكُلِّف الدكتور أمجد بإدارة الأزمة ميدانيًّا ولفيفٌ من الباحثين. كان المنظر لا يسُرُّ العين إطلاقًا، والسؤال الحائر الذي احتل الوجوه: لماذا نساؤنا؟! لا إجابة كمألوف العادة! الآهات تدوِّي خلف جميع الجدران، فقد توغَّل الفيروس برفق وتُؤَدة يتلذَّذ بالتهام النساء بكل أعمارهن، ولم يفرّق بين مُسنَّة وطفلة، صحيحة ومعتلة، عاصية وملتزمة، مختمرة ومتبرجة، بريئة وظالمة، كلهن يذقن ويلات خروج الروح من الجسد بأبشع طرقه، في المستشفيات، في المساجد، في الكنائس، في الساحات، جميع الأماكن تنضح بالألم والصراخ والوداع، بينما الرجال لا حيلة لهم، فقد عجزوا كما عجز العلم، حتى الإمدادات الأجنبية من كل دول العالم سواء علماء أو أدوية عجزت هي الأخرى.

مرّت الأيام والوضع يزداد سوءًا، وبدأت دول العالم ترفع يديها عما يحدث في مصر، وتطالب المواطنين بقبول الوضع الراهن، والحكومة بالتخفيف عن المواطنين، فلا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب. ولم يكتفِ المشهد الحالي عند هذا الحد، بل

راحت دول كثيرة تغلق حدودها مع مصر بعدما صارت منطقة موبوءة ومحظورة.

ووسط هذا الوداع الأليم، ردّد الدكتور يونج في حسرة وبكاء: قد عَجَزَ العِلم.

«عَجَزَ العِلم».. كم هي جملة مرعبة، أن يخذلك ذلك الحصن المنيع الذي ظننت أنه قادر على كل شيء! فها هو يتخلَّى عنكَ ويُعلن عجزه، ها هو يتركك تواجه الذعر والخوف وحدك من دون مؤازرة، ها هو يخبرك أخيرًا بأنه لا قدرة لديه أمام القادر الحقيقي لهذا الكون، الله.

كان الأسبوع الأول -منذ تحوَّر الفيروس- كفيلًا بأن يمحو أثر النساء من الحياة في مصر، وكأنهن لم يعشن لحظة واحدة على ظهر الحياة! مضت أسابيع أخرى حتى اطمأن العالم إلى أنه لم يكن فيروسًا معديًا، كونه لم ينتشر في العالم، وخرج أحد الباحثين من إحدى المنظمة البحثية العالمية، وقال:

- لا نستبعد قيام بعض الباحثين المصريين بتصنيع الفيروس للتخلُّص من زوجاتهم، فانقلب السحر على الساحر، وفلت الأمر من بين أيديهم وقضوا على أجيالٍ كاملة.

أثارت هذه الاتهامات الجزافية غير المسؤولة حفيظة الباحثين المصريين لِما لها من سمعة سيئة في حقهم، واتهام دنيء تنأى عن حمله الجبال الثقال، فعُقد لأجله اجتماعات ومؤتمرات تشجب وتدين هذه المُهاترات والمزايدات الجوفاء، وتُحذِّر من المساس بالباحثين المصريين.

عقد الدكتور يونج -الذي لم يغادر كما غادر الباحثون الأجانب- مؤتمرًا صحافيًّا يوضح فيه ما حدث منذ اشتعال الفيروس وحتى غفوته، فالباحثون في العالم يدركون قيمة الدكتور يونج العلمية، ولماذا اختار العمل في مصر تحديدًا على الرغم من مغريات العروض التي جاءته قبلًا، فلذلك كانت كلمته مسموعة، ودفاعه عن الباحثين المصريين لقي صدًى واسعًا في أرجاء العالم، واختتم حديثه للعالم بقوله: «ولا تنسوا أن هذا البلد أنجب الدكتورة جوانة».

كان الخطاب مؤثرًا لأقصى حد، وهو ما جعل تلك المنظمة في اليوم التالي تعتذر من أنها سمحت لهؤلاء الباحثين بالظهور عبر منصاتها.

فلا يزال الدكتور يونج متأثرًا برحيل الدكتورة جوانة دون أن تظهر براءتها أمام العالم، لا يزال تعتليه حسرة إزائها، وشكٌّ فيما دار، وهو ما جعله يتساءل في نفسه كل حين: أهو كما يقول أمجد «نبوءة حلم ياقظ»! أم أنها مؤامرة لم تكتمل خيوطها بعد.

كانت المساعدات الفكرية للخروج من نفق الأزمة الحالية تتبادر إلى الحكومة المصرية التي فتحت مجالات التواصل مع الجميع لبحث تداعيات الأزمة الراهنة، فكان أول الحلول المطروحة استيراد النساء لتجديد النسل وإعادة الحياة لِما كانت عليه؛ فالحياة لن تقف عند نساء قُتلن غدرًا، كما ردّد الكثير من المصريين عبر وسائل التواصل.

وأول ما نما إلى ذهن الدكتور أمجد أثناء انشغال الحكومة بالحديث حول استيراد النساء، نبوءة جوانة، فانصرف مسرعًا إلى الدكتور يونج وقال:

– هذا المسار له تباعات محزنة لن تُحمَد عقباها، وأول الغيث الذي سيمطر حزنًا وفراقًا إن شُغل العالم عما حدث لمصر.

– ماذا تقصد؟!

– المؤامرة يا دكتور، المؤامرة!

دار في الغرفة كالمجنون، واستكمل قائلًا:

– كيف لم أفطن لهذا على الرغم من أن الدكتورة جوانة أخبرتني بتفاصيل الحلم كاملًا؟!

برفقة الدكتور يونج، خرج الدكتور أمجد يقول للعالم في بيان رسمي:

– قريبًا ستسمعون صرخات دول عربية، وبعدها الأفارقة، ثم سيتعمّق إلى باقي البشرية جمعاء، وسنُمحَى من الأرض. فلا تنشغلوا بسفاسف الأمور عمَّا حدث في مصر، ودعونا نفكر معًا لنجد مصلًا يوقف هذه الكارثة.

لكن كلامه لم يُعبَأ به، فهزأ به البعض، والبعض الآخر أخذ كلامه على محمل الجدِّ، لكن دون نفع، فقد ضاع العلم في جلبة الفوضى.

انبرت كثير من الدول لتقديم العروض النسائية على مصر، كل دولة تعرض مفاتن نسائها ومميزاتها المتفردة، والمصريون بحكوماتهم يفكّرون أي الدول أكثر أنوثة من غيرها، رغم اشتراط الحكومة المصرية من عدم قدرتها المادية على دفع مليم واحد إزاء هذه الصفقات لقِلَّة الموارد المادية، إلَّا أنهم رحَّبوا ووافقوا من

دون نقاش، والعلّة في القبول أنه ربما أرادوا التخلص من نسائهم الزائدات المتسكّعات في الشوارع والضواحي، أو ربما لعلّة أخرى!

حملت الشروط المدمجة في العقود عدة بنود مبهمة، كان أول هذه الشروط للدول المصدرة للنساء هي: «حرِّيَّة نسائهم المطلقة في الملبس والعيش والثقافة، وعدم إجبارهن على ما لا يرغبنه»! احتوى هذا الشرط على فخٍّ مريب، لكن لم ينتبه إليه الكثير وست حالة الهياج اللاشعوري التي أصابت الرجال، خاصَّة المتعطِّشون لتذوّق النكهة الأوروبية. فكانت الفرحة مرسومةً على وجوههم، وإن بدا بعضهم حزينًا كئيبًا على فقدان أحبائهن، لكنهم يضمرون سعادتهم في قلوبهم.

فمن ذا الذي لا يميل للجميلات؟!

كانت الحكومة تسابق الزمن في استعجال استيراد النساء لعدَّة أسباب، أولها، الدعم المادي المرصود الذي ستُغدقه الدول الكبرى لمسايرة الحياة في مصر، والثاني، استجابة لنداء المصريين بحتمية استيراد الحسناوات فقط ليعوِّضنَهم عن مرارة العيش في كنف زوجاتهم السابقات. وصُنّفت هذه الاستجابة كأسرع استجابة في تاريخ علاقات الحكومات بشعوبهم، رغم ما يخفيه من تبعية وخضوع.

بِيعَ الوهمُ قراطيسَ للناس، وأُبرمت جميع الاتفاقيات على إرسال نسائهم لتجديد النسل، وجُهزت النساء لتُحمَل حملًا إلى مصر، وكأن القدر يقول للمصريين: «قد سمعت شكواكم الدائم وأنينكم الطافح من نكدهن وبؤسهن ولعنهن العيش والمعيش، وقررتُ منحكم الفرصة كاملة بأن تختاروا ما تشاؤون

من الأصناف والأحجام والألوان، لعلَّ الجميع يعرف من أكثر نكدًا ونفورًا ولعنًا».

– غدًا نمتطي الجميلات المائلات.

– آن الأوان للفقراء أن يسعدوا يتذوّقوا لقمة سائغة تذوب في الفم مع أول مضغة من دون عُسرٍ في الهضم.

– شتان ما بين شربة المياه الباردة على الظمأ، وشربة المياه الساخنة على الظمأ. فالأولى يعقبها راحة تسري في البدن، والثانية يتبعها الأذى والسخط.

هكذا أبدى الكثير من المصريين بآرائهم الساخرة على الصفقة، ولم يكن أحد أسعدَ حالًا بحلول هذه الكارثة منهم. بل مال أكثريتهم إلى تصديق تلك الرواية الرائجة في البلاد من أن بعض الباحثين المصريين هم من صنعوا هذا الفيروس، والأعجب، أنهم طالبوا بمنحهم جائزة نوبل! وتحوّلت المواقع الإخبارية إلى زغاريد وأفراح لم يُرَ مثلها في البلاد، ولم يُراعَ فيها مأتم بعض الرجال الأوفياء على رحيل أهاليهم واعتزالهم الحياة قهرًا وشوقًا.

ولكن الفرحة لم تكتمل، فقد حلَّت لعنة المصريات على الأرض!

ففي صباح يوم التنفيذ، وبينما المصريون مستعدون، والعالم مترقب لتلك اللحظة التي ستُدوَّن في التاريخ، صرخت دول عربية صرخةً سُمع أنينها، تشكو من استفحال الفيروس فيها بعنف وشراسة، فمضى يهتك عرض النساء هتكًا، وحوَّل الهدوء والاستقرار إلى فزع وفوضى عارمين، فمَن لم يمُت بالفيروس مات بالفزع. وتوالت الدول العربية والإفريقية تعلن عن تفشّي

الفيروس فيها بوتيرة أعنف مما حدث في مصر. وقتَها فقط، أفاق العالم، وأُطلق دوي الإنذارات في كل مكان تهيب وتحذّر من الخوف المقبل إلى العالم بأسره، واجتمع خيرة الباحثين من أنحاء العالم في مصر مرة ثانية، وصارت مصر مجتمعًا للعلم في آخر الدنيا كما كانت مهدًا للحضارة في أولها، كل يوم يبحث العلماء والباحثون عن الأسباب، وإمامهم في ذلك هو الدكتور أمجد، ليس لعلمه فقط، فيوجد من هم أعلم منه مؤكدًا، لكن لنبوءته، يتكلم ويعرض ويثبت وينفي، وهم ينصتون لهذا الفذ صاحب النبوءة.

هنا، صدَّق الجميع نبوءة الدكتور أمجد التي نقلها عن الدكتورة جوانة، وأخذت الحكومات والباحثون والشعوب يتلقَّوْن الأوامر من الدكتور أمجد عن المصير المقبل للعالم، وإلى من ستؤول الأوضاع في نهاية المطاف؟

وغدا الدكتور أمجد أيقونة العالم الحديث.

(20)

ثمّة خرافة تقول بأنه لا جدوى من المحاولة في أمرٍ يُطارد الجميع، وأنه على المكافحين أن يكفُّوا عن وضع المِلح على الجُرح إن أرادوا الشفاء، وأن الانسحاب أفضل من الانغماس في معركة خاسرة، وأن العد التنازلي قد بدأ بالفعل، لا شعوريًّا هذا كلامٌ يتماشى مع المنطق، كون أن الواقع يُصدّقه، لكن الانتصار في هذه المعركة يحتاج إلى محاولات، والمحاولات تحتاج إلى صبر، والصبر يحتاج إلى رجال أشدَّاء أمثال الدكتور أمجد والدكتور يونج.

فما أبهى الانتصار بعد مكابدة محاصرة بالمخاطر.

بدأ الفيروس خاملًا منكرًا، ثم سار ببطء يتنقل من جسد إلى جسد، ومن دولة إلى دولة، ومن قارة إلى قارة، وكأنه موكّل بإتمام مهمة محددة، حيث مضى بهيمنته المستمدة من الذاكرة يقتلع جذور النساء العربيات من أرض المشرق وسط استغاثات الرجال وصراخهم المُبكِي، بينما العالم يفوح صمتًا وهو يشاهد ما يحدث، يشاهد هذا الحصاد المهين والمخيف، الأطفال، الشابات، الطاعنات، كأنما نُفخَ في الصُّور فتساوى الكل من دون فرق!

وكالعادة، يُعقد الاجتماع الخمسون للدكتور أمجد والباحثين، وهذه المرة لا لعِلمٍ يطرحه، ولا لأملٍ يسوقه إلى المكلومين، بل في انتظار نبوءة جديدة يدلي بها.

فيسأله أحدهم في بؤس:

– إلى أين سيذهب الفيروس بعد أن قضى على نساء العرب قاطبةً يا دكتور أمجد؟

ينظر إليهم في غرابة، وإلى البيانات الواردة في حزن، وإلى الشاشات التي ترصد الآهات والاستغاثات في ألم، ثم يتنهد بعمق دلَّ على فقدانه الثقة في أي محاولةِ إنقاذٍ لهن، وقال:

– لن يوقفه أحد بعد الآن. سيظل في حصده حتى يقضي على نساء الأرض، ثم ينقلب على الرجال.

راح بعضهم يموج في بعض، وقبل مغادرته الاجتماع قال بعينِ الباكِي للدكتور يونج:

– أعلِنْها صراحةً يا دكتور، وأبلغ الرجال أن يودِّعوا نساءهم وداعًا لا لقاء بعده.

خرج الدكتور يونج ومعه نفرٌ من الباحثين، وقال في بيان للعالم: «لم ندَّخر جهدًا في مجابهة هذا الكابوس، وفعلنا كل ما بوسعنا، فاعذروا تقصيرنا، واستمتعوا مع زوجاتكم وأمهاتكم وأخواتكم وأطفالكم، وودِّعوهنَّ على أمل اللقاء القريب في العالم الآخر، فخيرٌ لكم أن تتوقَّعوا موت نسائكم بدلًا من أن يُنتزعنَ من بينكم وأنتم عاجزون عن المقاومة. استعدُّوا لأي شيء، فالأسوأ لم يأتِ بعدُ، فقد نفدت حلول الأرض».

بعد أيام قليلة من الهدوء اليَقِظ في منطقة الشرق الأوسط، استيقظ العالم على نفس الفاجعة الكبرى، لكنها فاجعة متوقَّعة، إنه الفيروس المجهول ذاته، فمن دون استئذان مضى ينهش في أجساد النساء بحماقة، كحماقة المغتصِب، لا يتركهن إلَّا جثثًا مثخنةً بالأذى لا يَصلحن لشيء. أيام بلياليها وهن يتذوقن ألوانًا من العذاب، والفيروس يتفنّن في صيد ضحاياه بأبشع وسائل الصيد، كأنما يتلذَّذ بهنَّ وببكائهنَّ وبهَلعِهنَّ وبإيذائهنَّ لأنفسهن، وظل هكذا حتى نجح في معركته الضروس، ثم اختفى، وخلى العالم من النساء، لا ثرثرة، لا صياح، لا عويل، وكأن شيئًا لم يكن، وبقي الرجال وحدهم على كوكب الأرض، وكأن القدَر يعاود منح ذات الفرصة للرجال، ويقول لهم:

«أروني من أنفسكم ماذا ستصنعون من دون النساء؟».

كان مطلع القصيدة كُفرًا؛ إذ غُلِّبت المطامع والأهواء والمصالح، وخلا كل قويٍّ يخطط في كيفية الاستئثار بالضعيف، فعُقدت تحالفات وتجمَّعت قوى، وتهيأ العالم لأول حرب شاملة تجوب الكوكب بأسره خرابًا ودمارًا محقًّا، بالضبط كما فعلت النساء قديمًا في نبوءة جوانة، وغفل الجميع عن المقصد الحقيقي من وراء ذلك الاختبار الإلهي، إلَّا الدكتور أمجد والدكتور يونج وباحثين آخرين، فكان لهم الفضل في عودة الهدوء والسكينة بين العالم من جديد.

وبديهيًّا ما كانت الحياة أبدًا لتسير في سلام هكذا من دون أن ينغِّص حال الناس منغِّص يدعوهم إلى الميل للشهوات ميلًا عظيمًا، وكان منبت هذا الإفك المبين هو فراغ العالم من

المقصد والسبيل، فكان من السهل غوايتهم باسم معانٍ كثيرة في الحياة، فاتبع الرجال -إلّا قليلًا منهم- المضلوُّن في الأرض بدعوى الحريات المطلقة، وبدعوى الاستمتاع الأخير قبل فناء العالم، وبدعوى الاستكشاف والتلذُّذ، وهو ذاته نفس المنطق حينما حكمت النساء الأرض، ولكن أغلب الناس لا يعلمون!

انصرف عام وبضعة أشهر والعالم من دون نساء، والدعوات إلى الحريات لم تسكت، ولم يعد أحد يهتم بنبوءة الدكتور أمجد أو حتى ينتظر حديثه أو حديث العِلم والعلماء، كان هذا العام والأشهر التي تلته كفيلًا بأن يمحو أثر الخوف من قلوب الرجال، ويوهمهم بأن القدر ما فعل ذلك إلَّا ليمنحهم حق الحياة سعداء من دون نساء ينكدن عليهم العيش.

فما كان أمام الدكتور أمجد والذين معه إلَّا أن يخرجوا على العالم في ثوب النصيحة الأخيرة للنذير القادم، والتي حينئذ لن ينفع معها لا ذرَّة ندم ولا نخزة ضمير، فقال أمجد:

- أيها الرجال، كما عاهدتم مني حديثًا صريحًا، أسميتموه بنبوءة أمجد، أقول لكم قولتي الأخيرة، فلعلّي لا ألقاكم بعد هذا المقام أبدًا، إن الله يريد منّا الاستسلام لأمره، وما فعل ذلك إلَّا ليمحِّص صدورنا، فمن أطاع وصبر فله الأجر، ومن عصى وأعرض فقد ضلَّ.

ثم تنهَّد بفتور، وأردف:

- إن الطامة الكبرى لم تأتِ بعدُ، وأخشى أن يعاقبنا الله جميعًا على هذا المسخ. فلا تركنوا إلى الذين يبغونها عوجًا، وشدّوا رحالكم إلى الله.

وشرع بعض الباحثين الآخرين يُدلون بدلوهم، وينصحون البشرية بكل لغات النصح والإرشاد الديني والدنيوي من الخطر المحدق لهذا الانجرار الفظيع خلف هذه الشهوات المميتة، لكن للأسف من دون فائدة. واختتم الدكتور يونج قوله في المؤتمر:

- غدًا ستعلمون أننا ما أردنا إلَّا النصح والخير.

فلم يكن ما فعلوه هو روبوت نسائي يُخمِد فيه الرجال شهواتهم، -فقد صارت أليفة مؤلفة لهم، وتعوَّدوها حتى إنها لم تعد تُشبع نهمهم الذي لا حدَّ له-، لكن المقصد الحقيقي هو غرقهم بشكل علني وفج فيما هو أبشع وأضل سبيلًا؛ المثلية الجنسية، فتصدَّى المؤمنون من رجال الأديان السماوية لهذه الدعوات الحمقاء، وبارزوها بكل قدراتهم، فتُليَ القرآن ليل نهار في المساجد، ورنّت أجراس الكنائس والمعابد وقُرئت فيها الترانيم الحكيمة، ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا الميادين، وطرقوا البيوت، وجابوا الطرقات والنواصي والضواحي يحدّثونهم عن عاقبة هذه الفحشاء المنكرة، وأن مرتكبها سيناله عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فكأن الرجال حُجب عن أفئدتهم سماع الحق، وطُمس على عقولهم الفهم، فلم يستجب إلَّا القليل.

لكن صوت الشهوات كان أعلى من صوت الإيمان، فانخرط الرجال في غيِّهم، الرجل مع الرجل، وخرج المثليون كأنما نودي فيهم فإذا بهم من كل حدبٍ ينسلون يعلنون مثليتهم صراحة، بينما الذين آمنوا راحوا يتساءلون في عجب وبكاء من المصير المجهول: كيف تجرَّأ هؤلاء على هذا المنكر من دون خجل؟! كيف

تجـرَّدوا مـن ثيابهـم مـن دون حيـاء؟! بـل الصَّاخَّـة الـكبرى، كيـف قـدروا علـى مبـارزة الله جهـارًا نهـارًا؟!

مضـت الأسـابيع والعالـم يغـوص في المتـع والترف وإنشـاء القـوانين الجديـدة، وكان آخـر مـا أصدرتـه بعـض الـدول الفارضـة ثقافتهـا علـى الأرض، قانونًـا ملزمًـا بتطبيـق المثليـة علـى الجميـع، ومـن لوحـظ أنـه بلا مثيلـه عوقـب بالحرمـان أولًا مـن تـرف الدنيـا وزينتهـا، وإذا تمـادى في تمسّـكه بالمبـادئ والأخلاق النبيلـة، عوقـب بالعـذاب الشـديد حتى الانصيـاع أو الموت. ومـذ حينهـا وأصبـح نهجًـا عامًّـا انتهجتـه جميـع الـدول سـواء طواعيـةً أو كرهًـا.

(21)

-اقضوا عليهم، إنهم أُناسٌ يتطهرون.

في الشهور الماضية كان قد ضُيِّق على المتطهرين وأُلقُوا في السجون يُعذبون كل يوم، واليوم خرجت الصيحات من كل مكان في العالم تناشد بقتل المتطهرين، فقد قرَّر المثليون التخلّص من كل متطهّر لا يؤمن بما يؤمنون به، وبالتزامن مع الذكرى الثالثة على الكوكب بلا نساء، فأريدَ ألَّا تحلَّ تلك الذكرى وبينهم متطهّرٌ واحد، فصار قانونًا واجبَ النفاذ من دون رجعة على كل دولة بها متطهِّرون، أن يخرجوهم من السجون وتُسفك دماؤهم على الملأ.

فشَا الخبر بين المتطهرين في محبسهم، وكان من بينهم الدكتور يونج ومن معه، فقال أحدهم:

- فلنستعد للموت بشرف.

سكتوا جميعهم، وفي كل قلب كل منهم حكاية مختلفة يخشى قصّها! رمق الدكتور يونج أصحابه بابتسامة رضا، فبادلوه بنفس الابتسامة، وما بين هاتين الابتسامتين عاود أمجد من جديد ضجره المعتاد من عدم تذكُّر حلم جوانة كاملًا، يعصف بذاكرته عصفًا لعلّه يتذكر المخرج الذي وجدته جوانة في حلمها، لكن

ذاكرتـه تخلّـت عنـه ولـم تُسـعفه! وفجـأةً، لاح في الأفـق المخـرج، الجزيـرة المعزولـة، هـل يمكـن أن تكـون هـي النجـاة حقًّـا؟!

قفز بفرح مفرط، وهو يقول:

– وجدتها، وجدتها يا دكتور.

– ماذا؟!

– حكـت لي الدكتـورة جوانـة عـن جزيـرة منعزلـة كانـت هـي المخـرج في حلمهـا، هـذه الجزيـرة علـى حـدود الـصين، بلدكـم.

استغرب يونج، وقال:

– هذا هراء يا أمجد. هل يُعقل هذا؟!

– نحـاول يـا دكتـور، ففـي كلتـا الحالـتين سـنموت، فعلـى الأقـل نمـوت ونحـن نحـاول.

عـدّل الدكتـور يـونج من نفسـه، وهو يقـول كأنما جاء مـن عالم آخر:

– لا أدري لمـاذا لـم تحـكِ لي جوانـة عـن هـذه الجزيـرة مثلمـا سـردتها لـك؟! أكانـت تشـكُّ فيَّ؟! أنـا الـذي دافعـت عنهـا حين خذلهـا الجميـع، ولـم أبـالِ وقتَهـا بالانتقـادات التي أحاطـتني مـن كل اتجـاه. كيـف؟! كيـف تجاهلـتني هكـذا؟!

كانـت عينـاه ملآنـتين بالغضـب أثنـاء حديثـه، بينمـا أمجـد أغرقـه الذهـول، وقال:

– أهذا وقته يا دكتور! نحن حيال مأساة إذا لم نفعل شيئًا.

كأنه أفاق، وأجاب سائلًا ومتلعثمًا:

– ماذا سنفعل إذن؟!

كان هناك حارس مؤمن من آل المثلية يكتم إيمانه، ينظر لهم عبر الشرَّاعة الوحيدة في فضول، وإذ به في بهيم الليلة اقتحم المحبس، وطمأنهم أنه منهم لكنه يخشى العذاب ولا يتحمَّله، ويمكن أن يساعدهم في الهروب بكل سهولة إن أرادوا ذلك، فردَّ الدكتور أمجد بتخوُّف وحذر، وقال:

– وما حملك على هذا؟!

– لا تخشَني، إنما أنا وكثيرون هنا ندَّعي أننا مثليون حتى لا نموت ذلًّا وقهرًا، فلا طاقة لنا على تحمُّل الإيذاء الذي لاقيتموه.

ثم نظر إليهم نظرات متفرقة، وقال:

– ها، أي البلاد تحبون أن تهاجروا إليها؟

رد يونخ في عجالة:

– الصين.

أَمِن له يونخ وأمجد والذين معهما، واستمعوا لخطة الهروب المحكمة التي وضعها، وبدأ أولًا بوسم المثلية على وجوههم حتى لا يُكتشف أمرهم، ثم ملابسهم المتعارف عليها، ثم حركاتهم وسمتهم، ثم ضحكتهم ومشيتهم، وظل يسرد ويفهِّمهم إلى أن أتم خطته، وفي غضون ثلاثة أيام أنجز لهم التأشيرات وكل ما يلزم، ومن حظهم الجميل أنهم كانوا ثمانية رجال، أي أن كل رجلٍ مع رجل، إلى أن حانت اللحظة المنتظرة، ليلة الهروب من الجحيم، أعاد عليهم كافة التعليمات في حيطة وحذر، ثم تسرّب كل اثنين

مع بعضهما البعض، وهرب الثمانية هروبًا ناعمًا لم يُرَق فيه دم أحدهم، إلَّا الحارس، قد دفع ثمن فعلته ودارت معركة بينه وبينهم انتهت بسفك دمه الطاهر.

حلَّق الثمانية في الجو، ووصلوا إلى الصين، وفي كل مكان يعبرون منه يرون الرجال المتشبهون بالنساء، في البر والبحر والجو، كأن هناك من يمتلك آلة يستطيع من خلالها تحويل الرجال إلى مسوخ بشرية لا يصلحون لشيء!

أوشك الدكتور أمجد ومن معه أن يُجن جنونهم مما يرونه، فما هذا العفن؟! ما هذا الخبل الذي أصاب العالم؟! يعاود طرح أسئلته فلا يجيبه أحد، الكل مستغرق في ذهوله، فيجيبه يونج أخيرًا، قائلًا:

- لا أستبعد أبدًا من احتمالية وجود فيروس بدَّل الناس هكذا، فلا يكاد يُصدَق ما يُرى!

- الإنسان هو الفيروس الحقيقي في هذا الكون!

كان الأمل لا يزال حاضرًا في نفوسهم، رغم ما أخبرته العيون الشجية القلقة!

لم يُضيِّعوا مزيدًا من الوقت، فهم بحسب ظنِّهم على موعد مع النجاة، اعتلوا القارب وقلوبهم ترتجف، وصراع الهواجس على أشدِّه من رحلة محفوفة بالمخاوف ربما تنتهي بالغرق، لكنهم طمأنوا أنفسهم بأن أيًّا ما كانت بشاعة النهاية، هو أفضل مائة مرة من التورّط في هذا المسخ.

تركـوا الظنـون جانبًـا، وغاصـوا في عـرض البحـر يبحثـون عـن الجزيـرة، سـاعات وهـم يخاطـرون بأنفسـهم وسـط لطمـات الأمـواج المتقلبـة، يناجـون الله أن يجـدِّد فيهـم الأمل لعلَّهم يهتـدون إلى غايتهم، فلـم يهتـدوا بعـدُ، حتى انحـدر الأمـل إلى الأفـول ودخـل الليـل، وأعقبـه نهـار اليـوم الثـاني بلا أي بـادرة أمـل تُسـاق إلى قلوبهـم الحزينـة، لكـن عزائمهـم لـم تـفتر، وكلَّمـا تسـلَّل اليـأس إلى نفوسـهم ليثبطهـم طـردوه شـرَّ طـردة، وأغلقـوا خلفـه كل المنافـذ، وأعـادوا المحاولـة مـرة أخـرى، وبغتـة كافأهـم الله لجَلَدِهـم، فقفـز أحدهـم كالطفـل يرقـص فرحًـا حين رأى الجزيـرة علـى مـرمى البصـر، انفعلـت مشـاعرهم الطفوليـة المكظومـة بداخلهـم، وبالغـوا في فرحهـم حين تأكـدوا مـن وصولهـم لمرامهـم أخيرًا.

هـي كمـا حكـى أمجـد بالضبـط، محاطـة بأسـياخ ضخمـة ولوحـة كـبيرة مكتـوب عليهـا بعـدة لغـات:

«جـرِّد نفسـك مـن أوهـام الدنيـا، وألـقِ ملذاتهـا جانبًـا، فإنـك في الـوادي المنعـزل».

كاد قلـب أمجـد أن يُختلـع لِمـا يـراه، مـا هـذا؟! الحلـم يتحقـق، الحلـم أمسى واقعًـا، يصـرخ فيهـم ويقـول: «صدقـت النبـوءة يـا دكتـور، هنـا المخـرج».

تـواروا ريثمـا يتدبَّـرون حالهـم خشـية أن يراهـم سكان الجزيـرة. ولا يزالـون في غمـرة الفـرح سـارحون مستبشـرون، إلى أن أعـاد الدكتـور يـونج الانضبـاط، وكـرر سـؤاله الاعتيـادي لأمجـد:

– ماذا نحن فاعلون؟

أجاب ببهجة الانتصار:

- استكمال الخطة بالطبع.

وبينما أمجد يضع خطته حسبما ذكرته له جوانة في الحلم، إذ بصوتٍ ضخم يتنزّل من السماء تأهبًا لحساب عسير مرتقب كاد يصمُّ الأذن، صوتٌ مدوٍّ يعقبه هزة أرضية عنيفة، ليس زلزالًا، وليس تغيّرًا أرضيًّا طارئًا، وإنما فاتورةٌ حان وقت سدادها، فعلى حين غِرة غيَّم الجو، وكشَّرت السماء، وشُقَّت الأرض كمن تتهيأ لبلع مَن عليها، ثم بصيحةٍ أشد وطأة من السابقة، صيحة ممتزجة بصراخ وعويل يصعد شجنه إلى السماء، ومعه يزداد التوسل واللطم على تبديد العمر سُدًى، لكن كل هذا لم يشفع لهم، ولم ترحمهم السماء وفتحت أبوابها وأمطرت عليهم حجارةً من سجِّيل مصوَّبة عليهم بدقة قاصدةً هلاكهم، فإذا بهم كالسكارى وما هم بسُكارى، يتقاذفون من كل اتجاه وطريق، يُعاودون توسلهم إلى السماء، يبكون، ينادون، ويتعهدون بصلاح العهد إن نجَوْا، فهدأت الأرض وخفتت آهاتهم وسكنت نفوسهم للحظة، كأنما اِستُجيب لهم، لكنها لم تكن إلَّا لحظةً، لحظة التقاط الأنفاس قدومًا للأسوأ، فرُفعت البنايات بسكّانها وهم على حالهم إلى السماء، كما لو تجمّع العالم المتبق وحده في مشهدٍ واحد، ومرة واحدة وخُسف بهم الأرض فدُمّروا تدميرًا، ثم هدوء تام، هدوء لا نظير له، هدوء عمَّ العالم وأعاد سكينته، هدوء أسكت الأشياء كلها وكأنها لم تكن!

كان مشهدًا عصيبًا، وواقعًا أليمًا، رجع الثمانية ليشاهدوا ما حدث وهم على ظهر المركب، يمرون على المدن التي كانت

صاخبةً لا تنام، فرأوا آيةً من آيات الله، قد أذاقهم الله ويلًا من ويلات العذاب، وتركهم على وضعيتهم ليكونوا عبرةً لمن لا يعتبر. أيام وهم يجوبون المدن شرقًا وغربًا يتأملون وعد الله، ينظر بعضهم من طرف خفي إلى العرايا الممثَّل بجثثهم، كأنما استحوا أن يروا هذه المناظر مجردة هكذا.

قطع أحد الباحثين الصمت المملوء بخوفٍ وقلق، وقال باندهاش رهيب:

– هو ذاته المشهد الذي قرأته عن إحدى المدن الإيطالية التي يطلق عليها مدينة الزنا، لِما عُرف عن أهلها من الانغماس في الشهوات، نفس الوجوه والأوضاع والمعالم، وكأن التاريخ يكرر أحداثه.

ثم أكمل الدكتور يونج:

– نعم، هي مدينة الزنا أو قرية بومبي الإيطالية التي اختفت في ظروف غامضة، حيث قال أحد العلماء إن بركانًا مفاجئًا دمَّر المدينة بالكامل، وحوَّل سكانها إلى جثث إسمنتية مدفونة تحت الرماد، بعد أن كانت مدينةً تعجُّ بالحياة والحضارة. وكان أهل هذه المدينة الصغيرة يمارسون الجنس علانيةً، حتى أمام الأطفال، بل كانوا يستنكرون من يَستتِر!

استغرب الدكتور أمجد مما سمعه، وقال بلهجة حزن:

– أحقًّا هذا؟!

هز رأسه بنعم، واستطرد:

– والأغرب، أن المدينة ليس فقط اندثارها لمدة تقارب الستمائة عام، بل الأغرب هو الشكل الذي ظهر به أهل المدينة نفسها بعد تلك المدة، فكانوا على نفس هيئاتهم وأشكالهم التي كانوا عليها قبل انفجار البركان، والأشنع من ذلك، أن علماء الآثار الذين فحصوا الجثث قالوا إنهم لم تظهر عليهم أي محاولة للفرار، حتى لم يُبدِ أحدهم أي ردة فعل ولو بسيطة، وماتوا بسرعة شديدة من دون أي فرصة للتصرُّف، وكل هذا حدث في جزء من الثانية.

تفاصيل مرعبة تُعيي الجسد وتغمُّ النفس، فلم يتحمَّل البعض وطأتها على النفس، وبكوا من فداحة الحادثة.

عاد الثمانية الناجون إلى الجزيرة، وكلٌّ منهم يتخيَّل ما يقصه أمجد عليهم من تفاصيل في حلم جوانة، وصلوا بعدما عاشوا الهموم والأحزان والأهوال وطُبعت مشاهدها في قلوبهم، وقفوا أمام الباب الخشبي العملاق يتأهبون لرؤية النبوءة المنجية، طرقوه طرقة واحدة قوية، فأجاب الحارس على الفور مهدّدًا ومحذّرًا:

– ارجعوا من حيث جئتم قبل أن نقتلكم أيها الأوغاد.

(22)

حياة غاصة بالحياة، شبان مع آبائهم في الأرض يحرثون ويزرعون، وشاباتٌ فارعات الجمال بمختلف أعمارهن مع أمهاتهن في البيوت، وأطفال من كلا الجنسين يلعبون في الطرقات آمنين مؤمّنين. شتان ما بين المشهدين؛ الخراب والخزي، والعمار والافتخار!

مَن هؤلاء؟!

كان هذا هو التساؤل المهيمن على وجوه الثمانية.

قادهم الحراس إلى زعيم الجزيرة أو الفارس المغوار، -كما يلقِّبه الأهالي- مجرورين في سلاسلهم، والأهالي يتوافدون من كل جانب لرؤية الصيد الثمين الجديد، يهتفون ويباركون ويهللون لهذا الانتصار العظيم، ويجدِّدون البيعة لفارسهم الصنديد الذي ربح المعركة من الجولة الأولى من دون إراقة الدماء.

وقف الثمانية أمامه مذعورين إلَّا أمجد، كأنه رأى هذا المشهد من قبل، أو بالأحرى سمعه.

يسألهم الزعيم في تهديد ووعيد:

- من أنتم؟ وماذا تريدون؟!

– أنا الدكتور يونج، باحث علمي، مرَّ العالم الخارجي بشدة عظيمة، وهي انتشار فيروس أمات النساء من على كوكب الأرض وترك الرجال وحدهم، ثم تمادى غالبية الرجال في فُحشهم حتى عاقبهم بالله بالرجم والمسخ، ولم ينجُ من العالم سوانا، وظللنا نلفُّ العالم حتى جاء بنا المصير إلى هنا. فهل لي أن أسألك أنت من أنتم؟ وكيف لا تزال حياتكم عامرة بالنساء والأطفال حتى هذا الوقت؟!

سكت رئيس الجزيرة كالمضطر، لكنه ليس مضطرًّا، فكان لسكوته حكمة لم يُفصح عنها. دار حولهم كالمتحيِّر في أمرهم، ثم وقعت عينه في عين أمجد الذي كان يراقبه بذهول كمن يُدرك الآتي كله، وأشار إليه بحزم، وقال:

– أنت، قل ما في جعبتك، فإني ألمح في عينيك تعوّدًا مريبًا!

لم يبرح الزعيم مكانه وهو ينظر إلى أمجد نظرات تفرُّس حتى فاجأه الحارس بأن زوجته الزعيمة ولدت وليَّ العهد، فرَّ الزعيم إلى زوجته فرِحًا مسرورًا، وأمر حرّاسه بوضع الثمانية تحت الحراسة المشدّدة لحين الاطمئنان عليها. كان التفكير يشغل بالهم، أي مصير سيلاقونه، هل الإعدام؟ أم الغرق؟ أم القتل رميًا بالرصاص؟! قضوا ليلة مرعبة يفكرون في مصيرهم المجهول، حتى حضر اليوم التالي وهم على حالهم، فُتحت الزنزانة وسِيقوا إلى الزعيم الذي قابلهم بوجه باشٍّ غير الوجه الذي رأوه أمس، فقال لهم:

– أجيبكم عن كل الأسئلة التي تدور في أذهانكم منذ أن نزلت أقدامكم هنا، ثم بعدها نقضي حكمنا البات عليكم.

أوجسوا في أنفسهم خيفة. ثم استطرد حديثه قائلًا:

– نحن انفككنا عن العالم منذ سنوات بسبب..

قاطعه أمجد قائلًا:

– بسبب أنكم رأيتم الفساد والظلم، فقررتم أن تصنعوا مجتمعًا آمنًا لأنفسكم وذويكم، تعتمدون فيه على الحياة البدائية، فتأكلون وتلبسون من عمل أيديكم.

يجيب الزعيم في ذهول:

– نعم.

فيواصل أمجد:

– ولما انتشر الفيروس الفتّاك الذي أهلك النساء جميعًا، قررتم وقتها أن تُؤمِّنوا أنفسكم بسياج حتى لا يتسلَّق إليكم أي عدو، وعندما لم ينتشر الفيروس بينكم وكنت أنتم الفئة الآمنة حقًّا، وضعتم قوانينكم ونظَّمتم حياتكم على النحو الذي يُرضي تطلعاتكم، فعمَّ الاستقرار وتجدَّد النسل، بينما كان العالم ينحدر إلى الهاوية.

يجيب الزعيم في ذهول مكرر:

– نعم.

فيواصل أمجد في عجالة غير عادية أثارت عجب المحيطين:

– وهل تظن ذلك عدلًا أيها الزعيم، العالم يضيع وأنتَ ومَن قِبَلك منعمون؟!

– هل تهذي أيها الشاب الحالم الخَرِف؟ ماذا كنت تريدوني أن أفعل؟! أأعلن أمام العالم أن نسلنا بخير ليكون نساؤنا عرضة للبيع والشراء؟ دونها الموت، دونها الموت أيها الأبله؟!

وظل صوته يعلو وهو يردِّد: «دونها الموت أيها الأبله».

أفرج أخيرًا الدكتور يونج عن لسانه، وقال:

– لم يقصد ذلك أيها الزعيم، هو أراد أن يقول..

– اسكت أنت الآخر أيها المُسن الخرف.

فسكت، ويبدو أنه السكوت الأخير.

نادى على الحراس بملء فمه في غضبة قوية تشبه غضبة الملوك والأمراء:

– يا حرَّاس، جهزوا ثماني مقاصل وسط الجزيرة الآن.

ما أجمل يوم الذبح للحرّاس، فهي فرصة سانحة يثبتون ولاءهم لجلالة الزعيم. وعلى الفور، جُلبت المقاصل في وسط المدينة، ونُصب عرش الزعيم وزوجته، وجُمع الأهالي من حولهم يهتفون بالقضاء على هؤلاء الملوَّثين، وسيق الثمانية فردًا فردًا إلى ميقاتهم، ينظرون إلى الأطفال والنساء والرجال كأنهم اشتاقوا لرؤية هذا النسل رغم ما هم مقبلون عليه. وقف كل واحدٍ منهم عند مقصلة في انتظار أمر الزعيم كي يعطي إشارة البدء بقَصِّ الرقاب.

وفي كلمته الأخيرة قبل التنفيذ، قال الزعيم:

– أيها الناس، إني أعظكم بواحدة ثم إليكم يُرجع الأمر كله، إن هؤلاء الثمانية كانوا يريدون الإفساد في الأرض، وتشريدنا، وبيع

أعراضنا، وكنت على وشك العفو عنهم قبل أن أسمع إلى حديثهم الفاضح الذي عجّل بهلاكهم أجمعين، فكما تعلمون أن القوانين هنا لا بد أن تنفَّذ ولو كان الثمن حياتي أنا، لكي يستقيم العدل دائمًا من دون اعوجاج: فماذا ترون؟

ثارت الأهالي، وطالبوا بإعدام الثمانية بكلمة واحدة مكررة ألهبت الحماسة في قلوب الحرّاس:

- الموت، الموت، الموت.

أعطى الزعيم إشارة البدء، فاستبسل الحراس في خوض تحدِّيهم الضاري، وكلما قُطع رقبة أحد الباحثين هتف الأهالي لنصرة الزعيم الملهم، واستمر قطع الرؤوس حتى جاء الدور على الدكتور يونج والدكتور أمجد، فأمر الزعيم بتعليقهما على المشنقة وتركهما حتى تُسحب روحهما ببطء؛ لأنهما حسبما يتراءى له المُخطِطان للغزو. وبينما والحرَّاس يعدُّون المشنقتين، لمح أمجد الدكتورة جوانة تجلس بجوار الزعيم، فانخلع قلبه، وناداها بعلو صوته:

- دكتورة جوانة، أنا أمجد يا دكتورة.

فك قيده ببراعة محارب، وهرع إليها وسط عجز الحراس عن الإمساك به، وجرى كالمخبول الذي وجد ضالته لينجو ومن تبقوا معه، حتى دنا منها وسط صياح الناس وذهول الزعيم، فرماه أحد الحراس بسهمٍ في ظهره أسقطه طريحًا على الأرض، ومات في الحال.

وقف الدكتور يونج أمام منظره الصريع يبكي من دون أن ينبس بكلمة واحدة.

(23)

كلّ الأحلام مزعجة إلَّا ما أحبته النفس وألِفته.

تأتي الأحلام على هيئة ملاكٍ أحيانًا، وفي كثير من الأحايين وساوس شيطانية مجحفة، وكلتاهما تحمل رسائل لكل ذي لُبٍّ ومنطقٍ، فإما أن تعيد صياغة أفكارك وتوجيهها وتحتاط للمستقبل، وإما أن تتعلّل وتتأمّل كثيرًا دون أن تُحرك ساكنًا. فها هي جوانة رغم جهدها وعملها الدائب لكنها تتعلَّل كثيرًا وتتأمَّل طويلًا، فحياتها مضطربة دائمًا ومشتتة بين أبويها، أخوها، أولادها، عملها، ثم أيمن، حبيبها، ذلك الذي احتلَّ القلب فحكمه، لكنها لا تقدر على مواجهتهم لأجله!

تستيقظ كما المعتاد على صراخ أولادها، تُسكتهم بالصراخ والعويل والتهديد، ثم ترتدي ملابسها الأنيقة، ولا تنسَى إلقاء خطبة الوعظ عليهم وهي ذاهبة إلى عملها كطبيعة كل يوم، لكن هذا اليوم كان مختلفًا، فبخلاف الكابوس الذي لم تفهم تفاصيله وحكاياته بعد، قد رأت أيمن ينتظرها باشتياق العاشقين في مكتبها، فعاتبها عتاب الحبيب الوَلِه:

- إلى متى سنظل هكذا؟!

تسمَّرت خجلًا أمام اشتياقه المندفع من باحة عينيه، فلا هي أراحته برفضٍ ولا أسعدته بقبول.

- أنا مسافر بعد أسبوع، بكلمةٍ منكِ أبقَى، وبكلمة أخرى أهاجر من دون عودة.

كان بداخلها معارك كلامية لم تبُح بها، فبقيت على سكوتها على الرغم من عينيه الدامعتين، ففهم أيمن ما استوعبته نفسه المجروحة، ورحل حزينًا مُشتاقًا.

ترك رحيلُه غصَّةً في صدر جوانة كادت تقتلع قلبها، كأنها تقول لنفسها: «كيف لم يفهم صمتي الباكي ويتركني ويرحل بهذه البساطة؟»، وظلّت لبعض الوقت حبيسة بين واقعها المرير وماضيها النابض كأن غزوًا اجتاح الذاكرة!

وكان السبيل الوحيد أمامها للخروج من حالة التشويش المُربك هو الانهماك في عملها الذي غالبًا ما يُلهيها عمّا يشغل بالها، وبينما هي كذلك، قرع الباب أحدُهم وقال:

- دكتورة جوانة، هناك تكليفات بحثية متأخرة تريدها الدكتورة خديجة الآن.

نظرت إليه الدكتورة جوانة بدهشة، وبادلته الابتسامة، وقالت:

- كيف حالك يا دكتور أمجد؟ هل أنت بخير؟

أجاب بلطف مصحوب بعجب:

– بخيريا دكتورة، ومبارك على النجاح الباهر في بحثك الأخير، كان رائعًا، لكني توقفت عند سؤال لم أفهم مراده، فهل يمكنني أن أعيده عليكِ؟

أشارت له برأسها أن نعم. فسأل:

– حضرتك ذكرتي في نهاية بحثك سؤالًا حيّرني وهو: «هل يمكن اختلاق فيروس يمتلك القدرة على تحديد أعمار وجنس البشر؟!» فأظن أن هذا محال علميًّا، ثم إن هذا السؤال لا يتناسب مع ما جاء في البحث، فكيف يمكن وضع افتراض لا يمتُّ لنتائج البحث بصِلَة مباشرة؟!

ابتسمت الدكتورة جوانة، وسألته سؤالًا لا يمت للإجابة بصلة أيضًا:

– هل تؤمن بالأحلام يا دكتور؟ يعني هل حلمت ولو مرة بشيء ما مثل هذا؟

ملأته الغرابة من قولها غير المتناسق مع سياق الحديث، لكنه أجاب قائلًا:

– لا يا دكتورة، ثم إني لا أصدّق الأحلام من الأساس.

– إذن، صباح الخير يا دكتور.

– نعم!

أعادتها عليه بلهجة متقطّعة كأنها تغنّيها:

– صباح.. الخير.. يا.. دكتور.

– صباح النور! لكن أنا كنت أود أن أسأل عن..

قاطعته ضاحكةً مستبشرةً به:

– إياك أن تود أبدًا أو أن تسأل أبدًا.

ثم بلهجة ألهبت غرابته أكثر، قالت بذات الهدوء وابتسامة عريضة على وجهها:

– اذهب إلى الدكتورة خديجة وأبلغها بأني سآتيها بعد قليل.

مشى الدكتور أمجد ناحية الباب، لكن استشراء العجب بداخله أوقفه، فاستدار إليها وسألها ثانية:

– أنا لم أفهم حديثك يا دكتورة؟ هل يمكنك أن تُفهميني؟

واصلت تبسّمها، وهي تقول:

– عليك بتصديق الأحلام أولاً، وبعدها ستفهم وحدك.

ثم أمرته بالانصراف، فانصرف، وانصرفت هي أيضًا تغوص في بحر أبحاثها ساعةً تلو ساعة حتى تفاجأت باتصال أخيها مؤمن:

– الساعة الآن الرابعة يا جوانة، والمدعوِّين على وشك المجيء، لا تتأخري أرجوكِ.

– حاضر يا حبيبي، ساعة لا أكثر وسنكون عندكم أنا والأولاد.

لملمت أشياءها بسرعة، ومرت على خديجة أعطتها البحث المتأخر، وقالت لها:

– كيف حالك أيتها المنقبة المنقلبة؟

ضحكت من ثناياها، وأجابت:

– هل علم أمجد شيئًا؟

– يكاد يهلك من الألغاز التي تتعارك في ذهنه.

ضحكا طويلًا، ثم سألت خديجة:

– أليس لهذا السؤال الذي حيّر العالم مخرج قريب بعد؟ أم أنكِ قررتِ بيع الاختراع؟

ثم سكتت وقالت:

– فلعلّها تكون ونرى الخيال واقعًا؟!

ضحكا ثانية، ثم ودّعتها وهي تقول لها:

– اليوم حفل زواج مؤمن، لا تتأخري.

وفي غضون ساعة، حضرت جوانة وأولادها زواج أخيها على ابنة الدكتور يونج، تلك الفتاة التي تجعله ملكًا متوّجًا، على حد تعبيره. ليلة رائعة، علت الزغاريد وارتفع صوت المغنية اللبنانية «فيروز» يصدح في السماء؛ فغرَّدت تقول كالعصافير:

سألتك حبيبي لوين رايحين؟ خلينا خلينا وتسبقنا سنين.
إذا كنا ع طول، التقينا ع طول وليش متلفت خايفين؟
أنا كل ما بشوفك، كأني بشوفك لأول مرة حبيبي.
أنا كل ما تودعنا، كإن تودعنا لآخر مرة حبيبي.

اندمج الجميع مع هذا الجو الرومانسي المفقود منذ زمن، وأول ما أثار صياح الحفل، كان والداهما وهما يرقصان معًا، ثم مؤمن وزوجته، ثم كل خليلٍ مع خليلته. الفرحة منصوبةً على معالم الحضور، وبالأخص الدكتور يونج الذي فرح لانبساط أخته وهي ترقص مع زوجها كعصفورين يحلقان في السماء، ولم يكن لهذا

العـرس أن يكتمـل إلّا بفضـل جهـود جوانـة، التي قطعـت مسـافات شاسـعة من الشـدّ والجـذب بين تعنُّـت والديها من ناحيـة، وبين نعرة الدكتـوريـونج مـن جهـة أخـرى، حين أحسَّ بالإهانـة لمّا رُفضـت أختـه، حتى تـمَّ الـزواج المبرور بنجـاح وأُغلقـت صفحـات المـاضي الحزيـن.

واليـوم، الكل في غمـرات السـرور يرقـص ويـتلألأ كالنجـوم، إلَّا جوانـة قـد كسـاها البـؤس وأحاطهـا الإعيـاء، ولـم تسـتطع الكتمـان هـذه المـرة كعادتهـا، فانكشـف مـا بداخلهـا وظهـر جليًّـا على محياهـا كزجـاج شـفاف يُـرى باطنـه مـن ظاهـره. لكـن التعاسـة لا تـدوم طـويلًا كمـا يُقـال، فالأفـراح كمـا المصائـب تـأتي تترى، جاءهـا أيمـن، وأعـاد عليهـا ذات السـؤال أمامهـم:

– أنـا مسـافر بعـد أسـبوع، بكلمـة منـكِ أبقـى، وبكلمـة أخـرى أهاجـر مـن دون عـودة.

بعضهن لا يمكنك انتزاع موافقتهن من أعماقهنَّ إلَّا بتوريطهن!

حضـر أيمـن بترتيـب مسـبَق مـع الدكتـوريـونج ليطلـب الـزواج مـن جوانـة رسـميًّا وسـطهم جميعًـا. وقفـت جوانـة مشـدوهةً وخَجِلـة لا تفهـم أي شيء ولا بوسـعها قـول أي شيء، بينمـا العيـون مـن حولهـا غاديـة ورائحـة تسـأل وتنتظـر ردّة فعلهـا، حتى كسـر الدكتـوريـونج حالـة الصمـت التي أغرقـت الجميـع في الذهـول، وزكَّاه عنـد والـدي جوانـة، كونـه صدّقـه لمّـا قابلـه واعترف لـه بحبـه لجوانـة، وكان هـذا كلـه بتخطيـط خديجـة أيضًـا، التي أخرجـت خاتـمين ووضعتهمـا على الطاولـة وانـزوت مسـرعة إلى ركـن تتـوارى فيـه مـن نظـرات جوانـة الذاهلـة. عـاد السـكون ثانيـة ومعـه وزادت الدهشـة والضـحكات، فبـادر مؤمـن وقـال:

– ونحن لن نجد أفضل منه زوجًا وسندًا.

كانت نظراتُ والدَي جوانة مهيَّأة للسعادة، فاستقبلا النبأ بسعادة أنستهما فرحة زواج مؤمن، فدائمًا ما كانا يُحدِّثانها بشأن الخاطبين الذين يدقون الباب كل فترة، وأنهما يريدان الاطمئنان عليها قبل أن يستدعيهما الله. واليوم قد استجاب الله لدعائهما.

نادرًا ما تَخذُلك الحياة في مواجهة ما تتمنَّى؛ فهي فإما أن تعطيك وإما أن تُعوِّضك، والعاقبة لصبرك.

بعد أيام من الليلة النادرة في حياتهم، أُقيم العُرس، ودبَّ الفرح في نفوسهم وبيتهم مرة ثانية، فعادت جوانة وكأنها ابنةَ العشرين عامًا، صبيَّة متوهِّجة على عرشها، وبجوارها رجلٌ قلَّ نظيره بين أترابه، انتظرها طويلًا وتحمّلها كثيرًا حتى ظفر بها في نهاية المعركة، وفي ذيلها تجرُّ ثلاثة أبناء، رغم أنها تِربُه، ولم يسبق له الزواج من قبلُ! مرت الأسابيع وقد عاشا في كنف بعضها البعض، ينهل كلٌّ منهما من الآخر حتى أصبحا واحدًا لا جزءَ له ولا مِثل له.

وفي صباح يومٍ باكر، استُدعيت الدكتورة جوانة من حضن زوجها بضرورة الحضور إلى المركز لأمرٍ جلل، هرعت إليهم ومعركة التخمينات تعتمل في عقلها، هل يتكرّر فعلًا الفيروس الذي أمات الرجال؟ أم يتكرَّر الفيروس الذي أمات النساء؟ أم أنه فيروس جديد يعود بالعالم أجمع إلى عصر بدء الخليقة ليعرض عليهم الرسائل تباعًا، وينتظر من سيظفر ومن سيهلك!

طردت جوانة كل هذه الوساوس من عقلها حين وصلت إلى المركز، ترجَّلت بتمهل في البهو وهي تدقّق النظر فيمن حولها،

فوجدت حالة من التأهب وإعلان حالة الطوارئ العامة، مشادات كلامية في الصالة، صياح، قلق بادٍ على الوجوه، حينها علمت أنه النذير، نذير الشؤم وطاعون العصر، فأصابها همٌّ وغمٌّ مما رأته وحلَّ بالبلاد، ووقفت حائرة بائرة في غير مُستوعبة أي شيء.

أقبل عليها الدكتور يونخ كأنما احتمى بملاذٍ يوقن أنه سينقذه من وحل الكارثة، فبادرته بقلب مفتور وبسؤالٍ تتوقع إجابته وتخشاها:

- ماذا جرى يا دكتور؟!

- كارثة كبرى حلّت بالبلاد.

استسلمت لوقوع الواقعة دون أدنى مقاومة، وسألت مستفسرة وهي ترفع حاجبها الأيسر وتقول في حذر وتوقّع:

- وأي كارثة تلك؟!

سلّم لها التقريرين اللذين جاءا إلى المركز صبيحة أمس من وزارة البيئة ووزارة الصحة، اطّلعت عليهما في ارتباك واضح فارتجفت فرائصها، وكادت جوارحها تنطق من شدة الإحساس المفعم بالوجع، فلم يعد في جسدها مضغة لم تألف المصائب، إذ نزل بها القهر منزلة الهزيمة في المعركة من أول جولة، وأحاطها العجز يصوّر لها ويلات العذاب ألوانًا، فأذعنت للواقع من دون مُحاربة، فلا هي عادت تمتلك رغبة التدارك، ولا المواقف تمنحها فرصة ترميم خيباتها السابقة!

واقعًا يُشبه الموت في انتزاعه للروح.

تُبصر حولها كمن تتأكد من أنها ليست تغطُّ في نوم عميق، وأن حلمها المزعج لا يراودها! إنها مستيقظة بالفعل، وواعية لِما يدور، الكل حولها، الدكتور صبري وإلحاحه بوجوب معرفة أسباب الأزمة قبل انتشارها، والدكتور يونج أستاذها الألمعي الذي تتغنَّى بعلمه وخلقه في آنٍ واحد، والدكتور أمجد المنتسب حديثًا للقسم لكفاءته، والدكتورة خديجة صاحبة الجهد الخارق، والاهتمام الرئاسي، وطمأنة الدكتور فيكتور لها عبر الهاتف وقدومه على أول طائرة للمساعدة، فالجميع بلا استثناء حولها.

إذن هو ليس بحلم، بل هو حقيقة فارضة وجودها بتأويلات مختلفة!

شاع الخبر، وشاع معه الذعر يستوطن أفئدة الناس ويستحوذ على عقولهم، فكأنما بالذعر يُرى أثره في كل عين، ويختبئ في كل زاوية، وينتظر بتعطُّش توَّاق لحظة إيماءة لينقضَّ على فريسته وينتزع ما تبقى منها انتزاعًا. ها هو الشعور بالموت يقتحم حيوات الناس، ينذرهم تارةً ويتوعَّدهم تارات أخرى بأنه آتٍ لا مفرَّ، آتٍ رغم وفرة أسباب النجاة، ورغم إتاحة فرص العبور، ورغم نبوءات الأحلام، كمن يوقظ النائمين من غفلتهم ليكفَّهم عن مطامع الدنيا!

في تلك اللحظة الآنية، تراءى لجوانة والذين معها أن كل ما سبق لم يكن حلمًا عابرًا، ولا تسليةً ممتعة في وقتٍ مهدور، وإنما بوادر مستعِرَة للانفجار الكبير.

الفهرس

إهداء	7
على هامش الحكاية	9
(1)	11
(2)	20
(3)	29
(4)	39
(5)	48
(6)	59
(7)	66
(8)	77
(9)	86
(10)	93
(11)	99
(12)	105

(13) 111
(14) 117
(15) 121
(16) 126
(17) 139
(18) 147
(19) 157
(20) 165
(21) 171
(22) 179
(23) 184